
مجموعة المنشآت المعمارية للسلطان المريني أبي الحسن بالعباد تلمسان 737 - 749هـ / 1336 - 1348.

الدكتور / عبد العزيز لعرج
مدير الآثار جامعة الجزائر

موقع تلمسان (شع1): تقع تلمسان غرب المغرب الأوسط أو الجزائر حاليا بالقرب من الحدود الشرقية للمغرب الأقصى، وهي من المدن القديمة، تشرف شمالا على منبسط سهلي واسع مفتوح يتصل بالبحر غربا عبر سهل لالا مغنية، وتتصل بالبحر شرقا عبر وادي التافنة وسهله، وجبال السبع شيوخ⁽¹⁾.

يتميز موقعها الجغرافي بتوفر كمية هامة من المياه السطحية، وتكوينها الجيولوجي يحفظ مخزون كبير من المياه الجوفية تتفجر على شكل عيون ووديان صالحة للشرب وسقي الأجنة والحقول والبساتين فتنتشر الخصب، ويكثر فيها الزرع والضرع⁽²⁾.

التطور التاريخي والعمراني لمدينة تلمسان (شع1): وتلمسان مدينة موعلة في القدم، فيها لأول آثار قديمة باقية إلى اليوم، يقول عنها أبو عبيد البكري: «أما قاعدة المغرب الأوسط ودار مملكة زناته ومتوسطة قبائل البربر ومقصد لتجار الآفاق»⁽³⁾، يتركب اسمها حسب ابن خلدون من «تلم» و«سين أو سان» وهي كلمة بربرية معناها عنده تجمع بين اثنين: البر والبحر، أو الصحراء والتل⁽⁴⁾، ويذكرها الجغرافي الزهري بقوله: «أما مدينة عظيمة فيها عيون كثيرة ومياه غزيرة، وهي مملكة يعمل

فيها من الصوف كل شيء بديع من المحررات والأبدان وأحاريم الصوف والسفاسير والخبابل المكللة وغير ذلك، ولقد يوجد فيها كساء كامل وزنه تسع أواق ونحوه وهذا من بديع ما خص به أهلها من جميل صنعهم»⁽⁵⁾، وفوق ذلك فهي تتوسط طرق التجارة والاتصالات الكبرى الممتدة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، حيث كانت تستحوذ على النصب الأكبر من تجارة الذهب بين الصحراء الكبرى والشمال وقارة أوروبا، وبفضل موقعها وما توفر فيه من شروط طبيعية وجغرافية تبوأ تلمسان مكانة تاريخية وحضارية مرموقة منذ عصورها الموعلة في القدم، وأثرت تأثيرا بلغا في المغربين الأوسط والأقصى وهي باب إفريقية، ومن ملك الباب دخل الدار على حد تعبير هارون الرشيد الخليفة العباسي وقد تناهى إليه تأسيس الإمارة الإدريسية واستيلائها على تلمسان⁽⁶⁾.

وقد مرت تلمسان بجميع الفترات والمراحل التاريخية التي مرت بها منطقة المغرب بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة، وساهمت في جميع الأحداث السياسية والتاريخية والحضارية للمنطقة، إذ يرجح بدءا أنها كانت محطة تجارية أو مستوطنة فينيقية تطورت تدريجيا لتتحول في العهد الروماني إلى مدينة صغيرة تدعى بوماريا أو قيصرية، وكانت النواة الأولى لتطور مدينة تلمسان، استقرت بها حامية عسكرية رومانية لتأمين طرق الاتصالات الكبرى الرئيسية الرابطة بين الشرق والغرب أو بين موريتانيا القيصرية وموريتانيا الطنجية وحمايتها⁽⁷⁾، وقد واصلت المدينة تطورها تدريجيا لتتحول إلى مركز حضاري بنا فيه البيزنطيون كنيسة ظلت قائمة معمورة إلى وقت متأخر من العصر الإسلامي⁽⁸⁾.

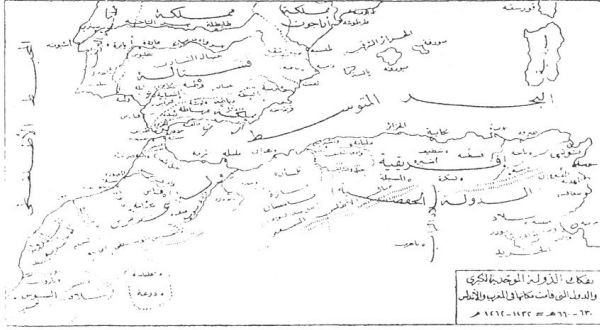
وعند بداية الفتح الإسلامي اقتضت جهود الفاتحين الأولى على المناطق الشرقية للمغرب ولم تصل الطلائع الأولى إلى تلمسان إلا في عهد أبي المهاجر دينار، وذلك في حدود سنة 55هـ/ 674م في حملته العسكرية على المغربين الأوسط والأقصى لفض التحالف البربري ضد الفاتحين⁽⁹⁾، غير أن كثيرا من المؤرخين يشككون في ذلك

ويرون أن فتح المغرب الأوسط والأقصى لم يتم إلا في عهد موسى بن نصير، الذي وصل إلى طنجة وما والاها وعين عليها طارق بن زياد فاتح الأندلس⁽¹⁰⁾.

ورضيت تلمسان بالإسلام بعد الفتح العربي للمغرب والأندلس رافضة السلطة السياسية للعرب وخاصة أيام عبد الملك بن مروان، وعملت على مواجهة سياسة الحجاج بن يوسف الثقفي المطبقة، فانضوت تحت حكم أمراء محليين من أسرة بني يفرن الزناتية تحت زعامة أبي قرّة، وظلت كذلك حتى قامت الدولة الإدريسية (172 - 296هـ/788 - 908م)، وتوسّعها في المغرب الأوسط وحلّوها بتلمسان سنة 173هـ/789م⁽¹¹⁾.

وتلمسان في إسلامها كانت تسمى بأجادير، كلمة بربرية تعني الصخرة⁽¹²⁾، والمتعمّن في موقعها يدرك أصل التسمية، فمحيطها كتل حجرية ومنشأها تقوم على كتلة صخرية.

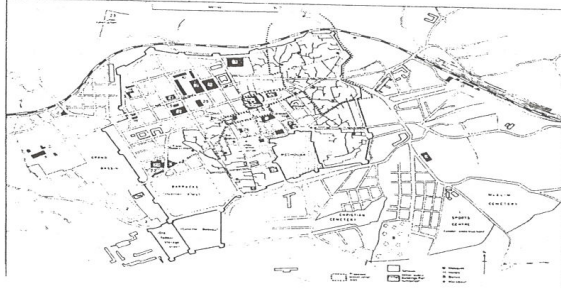
وعدت تلمسان من المدن الهامة في الدولة الفاطمية (296 - 362هـ/908 - 972م) باعتبارها معبرا جليلا لهم إلى المغرب الأقصى، وجرى ضراع بهير على المنطقة بينهم وبين أمويي الأندلس، وذلك بواسطة قبائل المغربين الأوسط والأقصى⁽¹³⁾. وتصارع من أجلها الحماديون (398 - 547هـ/1007 - 1152م) حكام القلعة وبجاية بني عمومة زيري إفريقية مع المرابطين⁽¹⁴⁾، وتبادلت الدولتان النصر والهزيمة حتى تمكن يوسف بن تاشفين نفسه من ضمها إلى أملاكه سنة 472هـ/1079م⁽¹⁵⁾، وبني فيها مدينة جديدة إلى الغرب من أغادير القديمة ومجاورة لها سماها تاكرارت أو تاجرارت بمعنى المحلة أو المعسكر بلسان زناتة البربرية⁽¹⁶⁾، وأحاط المدينتين بسور واحد، وظلت كذلك حتى استولى عليها الموحدون (547 - 668هـ/1152 - 1269م)⁽¹⁷⁾ بقيادة عبد المؤمن بن علي بن المنطقة من المرابطين سنة 547هـ/1152م، فأولوها أهمية كبيرة، وحصنوها بتحصينات شديدة، وخاصة أيام محنة بن غانية، التي كان لها الفضل في مواجهة جحافلهم وردّه عن أعقابهم⁽¹⁸⁾.



شكل 1 خريطة لبلاد المغرب بعد العصر الموحيدي

تلمسان عاصمة للدولة الزيانية (شكل 1): واستمرت تلمسان بوضعها الجديد وما تطورت إليه عمرانيا وسكانيا على يد المرابطين كعاصمة للمغرب الأوسط خلال العهد الموحيدي (548 - 668هـ / 1153 - 1269م) وبعد ضعف الموحدين على إثر هزيمتهم بالأندلس أمام النصارى في معركة العقاب سنة 609هـ / 1212م، انقسمت منطقة المغرب من جديد إلى ثلاث دويلات متصارعة فيما بينها، على السيطرة والنفوذ، وهي على التوالي: الدولة الحفصية وعاصمتها إفريقية تونس (625 - 982هـ / 1227 - 1574م)، والدولة الزيانية بتلمسان بالمغرب الأوسط (633 - 962هـ / 1235 - 1554م)، والدولة المرينية أو بنو مرين (668 - 869هـ / 1267 - 1465م)، بالغرب الأقصى وعاصمتهم فاس⁽¹⁹⁾.

وبذلك تحولت تلمسان مع مطلع الربع الثاني من القرن 7هـ / 13م إلى عاصمة دولة، هي الدولة الزيانية نسبة لوالد مؤسسها يغمراسن بن زيان، أو دولة بني عبد الوادي نسبة لقبيلة مؤسس الدولة، وذلك منذ 633هـ / 1235م⁽²⁰⁾، لتستمر في حكم المغرب الأوسط إلى انضواء الجزائر تحت الحكم العثماني طواعية.



شكل 2 مدينة تلمسان الزيانية: سورها وبعض منشآتها

الصراع المريني الزياني: وقد اشتد الصراع بين الدويلات الثلاثة، وانحصر أخيرا بين الزيانيين والمرينيين الذين تسلحوا بالقوة التي ورثوها عن الموحيدين، مدعين في نفس الوقت الوراثة الشرعية لهم بحق تلك القوة، مما يعني تأسيس لمشروع إعادة توحيد المغرب تحت رايتهم بمحو الدولتين الزيانية والحفصية، فرددوا الغزو والحصار لتلمسان لمرات كثيرة، كانت أسوار المدينة لقوتها ومناعتها تصدهم المرة تلو الأخرى، ومند سنة 695هـ/1295م أصبح غزوها سنويا، بل وكانت توجه إليها أكثر من غزوة في السنة الواحدة، واستمر ذلك حتى سنة 699هـ/1299م، عند ما حطت حملة عسكرية جديدة غرب المدينة بقيادة السلطان المريني نفسه أبو يوسف يعقوب، وضربت حصارا شديدا على المدينة، ولجأ أبو يوسف وهو محاصر لتلمسان إلى تأسيس مدينة، عزم منها على عدم رفع الحصار ومغادرة المنطقة إلا بعد سقوط العاصمة الزيانية، وسماها المنصورة تيمنًا بالنصر، وشيد فيها قصرا لسكناه وجامعا لصلاته ومؤسسات أخرى دينية ومدنية وصحية، وتبعه عليه القوم وبقيّة الناس بالبناء والتشييد. فتحوّلت مدينة المنصورة في وقت قصير إلى قوة اقتصادية ومالية كبيرة مستحوذة على مكانة تلمسان، خاصة وأنها عاصمة للمغربين الأوسط والأقصى معا⁽²¹⁾ وظلت تلمسان

تعاين آلام الحصار والجوع حتى أشرفت على الهلاك لولا وفاة السلطان فجأة اغتيلاً، فرفع الحصار عن تلمسان وعقدت اتفاقية بين الزيانيين والمرينيين، أحلوا على إثرها المدينة وغادروا المغرب الأوسط إلى بلدهم المغرب الأقصى⁽²²⁾.

السلطان أبي الحسن وتجدد الصراع المريني الزياني: وبالرغم من أن المرينيين رفعوا الحصار ورجعوا إلى فاس سنة 708هـ/ 1308م، فإنهم عادوا مرة أخرى سنة 735هـ/ 1334م لغزو تلمسان على يد السلطان **أبي الحسن علي بن سعيد**، وكان أبو الحسن ذا طموح سياسي واسع، وشخصية قوية وعزيمة جبارة، وكانت له من الصفات الجسدية والنفسية ما جعل أعداؤه يخبون له احتراماً، ويحذرونه خوفاً، وفي عهده اشتد الصراع بينه وبين بني عبد الوادي حكام تلمسان بسبب سياسة التوسع الزياني على حساب أصهاره الحفصيين التي اعتمدها أبي تاشفين عبدالرحمن، وترديده الغزو لممتلكاتهم وخاصة بجاية، وتدخله في البلاط الحفصي تنصيباً وعزلاً لسلطينه، وقد انتهى الغزو هذه المرة باحتلال أبي الحسن للعاصمة الزيانية بعد سنتين من الحصار (735 - 737هـ/ 1334 - 1336م)⁽²³⁾، والاستيلاء بعدها على تونس، سنة 749هـ/ 1349م ليحقق بذلك مشروع إعادة الوحدة إلى المغرب الإسلامي تحت رايته مثلما كانت عليه أيام الموحدين.

تلمسان عاصمة المرينيين: وقد نزل السلطان **أبي الحسن علي في المنصورة** مدينة جده أبي يوسف، وقام بإعادة إصلاح ما تقدم منها إصلاحاً شاملاً ورممها وحلأها بمنشآت جديدة، واتخذها عاصمة له للمرة الثانية، واتصل منها بمعظم الدول الإسلامية في المشرق والمغرب والأندلس، خاطبها ودها رابطاً صلته بها⁽²⁴⁾، وهو صاحب مآثر كبرى في مجال التعمير، فقد قام بحركة تعمير واسعة في تلمسان مثلما كان قد قام بها في مدن المغرب الأقصى، وإليه يرجع الفضل في تأسيس وتعمير حي العباد العلوي وتشبيده لمجموعة معمارية دينية ومدنية ومرافق عامة⁽²⁵⁾، تعد من أجمل وأفخم ما عرفته تلمسان من المنشآت.

وظلت مدينة المنصورة عامرة كعاصمة للمرينيين حتى 22 جمادى الآخرة سنة 749هـ/1348م، عند ما أخلتها الحامية المرينية تحت ضغط الأميرين الزيانيين أبي سعيد وأبي ثابت⁽²⁶⁾، مستغلين نكبة السلطان المريني أبي الحسن في القيروان بإفريقيا⁽²⁷⁾، والصراع بينه وبين ولده أبي عنان فارس⁽²⁸⁾، فأعاد إحياء الدولة الزيانية لمدة قصيرة وللمرة الثانية، وبعد استتباب الأمور للسلطان أبي عنان بزعمة والده ووفاته عاد للاستيلاء عليها سنة 752هـ/1351م من يد الأميرين الزيانيين، وتستمر تحت حكمه إلى سنة 758هـ/1356م^{(29)*}، ليستخلصها من المرينيين مرة أخرى أبي حمو موسى الثاني (723 - 791هـ/1323-1388م) بوفاة أبي عنان، ويعيد إحياء الدولة الزيانية للمرة الثالثة سنة 760هـ/1358م⁽³⁰⁾.

وتبوأ تلمسان مكانة مرموقة خلال التواجد المريني بها كعاصمة للمغربين الأوسط الأقصى مدة تقرب من نصف قرن متقطعة، ذلك أن المرينيين اعتبروها جزءا من ممتلكاتهم، يجري عليها ما يجري على مدغم بالمغرب الأقصى، وخاصة في عهد السلطان أبي الحسن، وتعد المنصورة هي المدينة الثالثة التي تتشكل منها تلمسان بعد أغادير وتاكرارت على التوالي.

احتوت هذه المدن الثلاثة المكونة لتلمسان على نسيج عمراني دقيق، كانت فيه أغادير وتاكرارت مدينة واحدة يحيطها سور، هو السور الذي شيده يوسف بن تاشفين لما بعد أن سقطت أغادير في يده، وهدم سورها لمقاومتها له، ثم ضمها إلى مدينته الجديدة تاكرارت وأحاطهما بسور واحد، فصارت مدينة واحدة⁽³¹⁾. أما المنصورة فهي لا تبعد عن الأسوار الغربية لتلمسان إلا بأقل من 2000م، وأسوارها متقابلة والباب الغربي لتلمسان يكاد يكون على محور مع الباب الشرقي للمنصورة.

المجموعة المعمارية لأبي الحسن المريني بالعباد:

التوسع العمراني لتلمسان وامتدادها خارج أسوارها:

أخذت مدينة تلمسان تتحول تدريجياً إلى مركز حضاري وثقافي مند حلول الأدارسة بها، وازدادت تطوراً وتوسعا مع المرابطين، وتغير مركزها من أغادير الإدريسية إلى تآكرات المرابطية التي صارت في عهدهم عاصمة المغرب الأوسط، يعين لها العمال والجباة، وقدرها الموحدون حق قدرها، خصوصاً أن عبد المؤمن نفسه، وهو المؤسس الحقيقي للدولة الموحدية، ابن المنطقة وقبيلته كومية تنتشر في نواحيها، كان قد تلقى قسطاً من علومه بها، ولم يكن يولى عليها من الولاة الموحدين إلا من كان منهم من أسرة عبد المؤمن نفسه⁽³²⁾، وتعاضمت أهميتها العلمية والثقافية في هذه الفترة، بما كان يفد عليها من طلاب العلم والمعرفة.

وظلت تلمسان على ذلك حتى حولها بنو عبد الوادي من مركز حضاري إقليمي إلى عاصمة دولة، تبارى حكامها منذ أول سلاطينها في تعميرها وإعادة إصلاح ما تدم منها، وترميم ما كان آيلاً للسقوط فيها، وتشديد المؤسسات والمرافق العامة والخاصة بها، كإصلاح وترميم السلطان يغمراسن نفسه للجامعي تلمسان المرابطي وأغادير الإدريسي، وبتحول تلمسان إلى عاصمة دولة شهدت زيادة سكانية جديدة وازداد معها امتداد نطاقها واتسعت نخطتها وضافت بسكاتها حتى بلغ عدد منازلها في عهد السلطان أبي تاشفين عبد الرحمان حسب رواية حسن الوزان ستة عشرة ألف منزل⁽³³⁾ فاتسعت إلى ظاهرها ونشأت أرباض (أحياء) لها بحكم تطورها العمراني الطبيعي، ومن تلك الأرباض أو الأحياء الجديدة، ربض العباد أو سيدي أبي مدين إلى الشرق منها وربض سيدي الحلوي إلى الشمال الشرقي وغيرها من الأرباض الأخرى. ومن هنا فإن أحد دواعي لجوء أبي الحسن إلى بناء مجموعته المعمارية خارج أسوار المدينة يعود إلى ازدحام عمران المدينة داخل

أسوارها، واختياره للعباد كمكان لتأسيس مجموعة معمارية يعود إلى اعتبارات سياسية ودينية واجتماعية، مثلما سوف نوضحه.

ربض العباد أو سيدي أبي مدين (شكل 2)*: عندما حل أبو الحسن المريني بمنصورة تلمسان 735هـ / 1335م انشغل مدة سنتين بحصار المدينة، وإصلاح وترميم معالم المنصورة، وما إن استولى على تلمسان حتى بادر إلى تشييد مجموعة من المباني بربرض العباد من تلمسان، وذلك ابتداء من سنة 737 هـ / 1337م وانتهت الأعمال بها سنة 748هـ / 1348م مثلما هو مثبت في واجهة جامع سيدي أبي مدين ولوحة الوقف بداخل الجامع (34).

كان ربض العباد على درجة كبيرة من الشهرة، وهو لا يبعد عن تلمسان بأكثر من 2 كلم إلى الشرق منها، وقد فتح في اتجاهه بسور تلمسان باب سمي باب سيدي أبي مدين.

واسم **العباد** اسم له دلالة دينية، مفردة عابد (على وزن فاعل)، وهناك رواية كانت متداولة بين السكان مضمونها أن المكان كان مقرا لشخصية دينية متعبدة زاهدة تسمى سيدي العابد أو العباد فنسب المكان لها، وكان الاسم يطلق أحيانا في دلالة العامة دون تمييز بين حيين معروفين بالعباد: السفلي والفوقي، ويبدو أن المكان كان ملتقى المتصوفة المنقطعين للعبادة، كما كان ملتقى تجمع العلماء الدارسين، فقد كان يحتوي على مدافن ورباط، والرباطات في هذه الفترة لم يكن لها دور دفاعي أو وظيفة عسكرية، ولكنها كانت قد تحولت منذ مدة غير قصيرة إلى منتدى للزهاد والمتصوفة والمنقطعين للعبادة، وكانت الشهرة الدينية والعلمية للمكان تستقطب أعدادا كبيرة من الطلبة الراغبين في تلقي العلوم والمعارف كما كانت تستقطب العلماء والمدرسين لما كان يشعه من أجواء علمية وثقافية، وكان من توفي من العلماء والصلحاء يجد

له فيه مدفنا، وكان في مقدمتهم في ذلك أبي مدين شعيب الذي اختار هذا المكان ليكون مثوى له وهو يغمض عينيه في عهد الخليفة الموحد الناصر بينما كان قادما إليه بمراكش بدعوة منه، وكانت رغبته هذه دليلا على الشهرة الدينية للمكان، وعلى المكانة التي كان يحظى بها عند العلماء والمتصوفة الذين كانوا يفضلون مواراة رفاههم في هذا المكان، ويوصون بذلك، سواء كانوا من أهل المدينة أو نازلين بها أو عابري السبيل، حتى كثر عدد القبور والأضرحة بالعباد، وتحولت تلك الأضرحة والقبور على مر الأيام إلى مزارات للدعاء والتبرك، وتساوى في ذلك جميع فئات المجتمع من حكام وعلماء وبسطاء الناس، وأبو مدين هو: الولي الشهير أبي مدين شعيب بن الحسين الأنصاري ضجيع تلمسان المتوفى سنة 594هـ / 1197م، وقد تجاوزت شهرة أبي مدين المغرب إلى الأندلس والمشرق⁽³⁵⁾.

وكان لربض العباد حيين: العباد السفلي والعباد الفوقي أو العلوي:

فأما العباد السفلي: فلا شك أنه كان أقدم عهدا من العلوي وأكثر عمرانا وازدهارا، ويقع من جهة باب الجياد، وهي إحدى أبواب تلمسان في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة، وقد ذكرته لوحة الوقف الرخامية لجامع سيدي أبي مدين بالعباد الفوقي في إشارتها لدارين تقعان إلى الشمال من جامع العباد السفلي، مما يعني أن هذا الحي كان عامرا بالمساجد والأضرحة، وكان عدد المساجد به لا تقل عن خمسة بماآذها، وكانت تحاورها أضرحة وقبور للصلحاء، وقد اندثر معظم تلك المباني، ولم يبق منها اليوم إلا بعضا من آثارها، حددت في أوائل القرن العشرين معالم خمسة مساجد منها، فضلا عن قبور وأضرحة أو قباب بالمصطلح المغربي، من أهمها قبتي أبي إسحاق الطيار وقبة الشيخ السنوسي⁽³⁶⁾.

ويبدو أن العباد السفلي بدأ يفقد أهميته في عهد أبي الحسن ليعوضه العباد العلوي، وربما هو ما دعا أبو الحسن إلى اختياره لبناء مجموعته المعمارية، حيث تميز موقعه بالارتفاع ويشرف على العباد السفلي من عال، وقد جعل أبو الحسن من مدفن أبي مدين في العباد العلوي نواة مجموعته المعمارية التي سنتحدث عنها فيما يلي.

العباد الفوقي أو العلوي: (شكل2).

خصائص الموقع: ويقع إلى الشرق من العباد السفلي، في منحدر جبل على مصطبة صخرية، يشرف على العباد السفلي، ويتصل به عبر طريق صاعد تكتنفه على الجانبين رياض وبساتين وعزب مشجرة بمختلف أنواع الأشجار المثمرة، تصلها مياه دائمة الجريان، تندفق من الجيوب الصخرية للجبل المشرف عليها، ولم يكن العباد الفوقي يخلو بدوره من المساجد وكان به رابطا للمتصوفة والزهاد، كما كان يشتمل على مدافن للصالحين وأهل الخير، وبه مزارات كثيرة⁽³⁷⁾، حل محلها الحي السكني الذي ما يزال إلى اليوم، فضلا عن زوايا لاستقبال الأولياء والصالحين وعابري السبيل وإسكانهم.

مدفن أبي مدين: في هذا المكان الخلاب دفن العالم الجليل والمتصوف الزاهد أبي مدين شعيب بن الحسن الأنصاري، الذي وافته المنية وهو في طريقه من مستقره بجاية إلى مراكش بدعوة من الخليفة الموحيدي يعقوب المنصور سنة 594هـ/1197م، ليكون قريبا منه خوفا منه، فقد تناهت إليه شهرته وذيوخ صيته، وأسر إليه أن فيه من الصفات ما يشبه صفات محمد بن تومرت مؤسس دولتهم، ولكنه مرض وهو في طريقه بالقرب من تلمسان، فأوصى بدفنه في العباد، وكان قبره قد حظي بشهرة كبيرة وتحول إلى مزار شهير يقبل عليه الناس من كل حذب وصب رجالا ونساء من المغرب والمشرق والأندلس⁽³⁸⁾.

منشآت أبي الحسن في العباد الفوقي (شكل3): اختار السلطان المريني أبو الحسن عند استيلائه على تلمسان هذا الموقع ليقيم فيه مجموعة معمارية متكاملة ذات وظائف متعددة، وتشتمل تلك المنشآت على جامع وضريح أو قبة ومدرسة وحمام وميضأة وقصر، فهي مجموعة معمارية متكاملة، ما تزال قائمة إلى اليوم رغم عوادي الزمن، واعتداءات الإنسان الدائمة، وتتميز تلك المنشآت بفخامة وجمال تخطيطا وزخرفة تدرج ضمن المنشآت المرينية الأكثر رقة ودقة في مدن المغرب الأقصى وخاصة في مدينة فاس، كما يمكن إدراجها ضمن المعالم الأثرية المعبرة على نضج الطراز المعماري والفني المريني المتميز.

والسؤال الذي يطرح نفسه، لماذا اختار أبو الحسن هذا الموقع بالذات ؟ وإلى ماذا يرمي أبو الحسن من هذه الأعمال الخيرية الضخمة والفخمة في بلد استولى عليه بالقوة بعد عداوة طويلة وحرب ضروس ؟.

المجموعة المعمارية لأبي الحسن بالعباد الفوقي وعلاقتها بالمشروع المريني (شكل2، 3): الحقيقة أن ذلك يعود لعدة اعتبارات، بعضها مرتبط بشخصية السلطان أبي الحسن نفسه، والبعض الآخر يتصل بالسياسة العامة وأهداف المشروع المريني من إعادة توحيد المغرب تحت رايتهم.

أما الاعتبارات المتصلة بشخصية السلطان نفسه: فهي أن هذا السلطان كان على مستوى عالي من الطموح، آل على نفسه تحقيق مشروع آبائه وأجداده في إعادة توحيد المغرب الإسلامي والأندلس تحت راية الدولة المرينية، مثلما كان عليه الحال في العهد الموحيدي، ولذلك عمل المرينيون منذ إسقاطهم للدولة الموحدية وقيام دولتهم سنة 667هـ / 1268م، على العمل على جبهتين:

الجهاد في الجبهة الأندلسية: فقد وصلوا مد مملكة بني نصر بالمساعدات المادية والعسكرية، وكانوا في كثير من الأحيان يعبرون إلى الأندلس بأنفسهم، وخاصة على

عهد السلاطين: أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (656-685هـ / 1258-1286م) وأبو يعقوب يوسف بن يعقوب الناصر لدين الله (685-706هـ / 1286-1306م) والسلطان أبو الحسن علي بن سعيد الملقب بالمنصور بالله (732-749هـ / 1331-1348م)، وذلك تأسيساً بجهاد الموحدين في الأندلس وسيرا على خطواتهم إكساباً للشرعية الدينية لحكمهم لاعتمادهم على القوة وحدها في بلوغه، والشرعية السياسية لمشروعهم في نظر المجتمع المغربي الأندلسي، غير أن الأوضاع السياسية والعسكرية الخارجية في العدوتين: المغرب والأندلس، وطبيعة النظام والحكم المريني وأفاقه الداخلية، كل ذلك لم يكن ليتيح للمرينيين تحقيق نصر كبير من النوع الذي حققه الموحدون في موقعة الأرك قرب مدينة قلعة رباح على عهد المنصور سنة 591هـ / 1194م⁽³⁹⁾، وكانت العلاقة بين المرينيين وإمارة بني نصر يتجاذها المد والجزر، وتتسم بالاضطرابات والخلاف وانعدام الثقة بينهما، وكان ذلك من الأسباب الرئيسية للفشل المريني في الأندلس بالرغم من بعض الانتصارات التي حققوها على الأسبان، والتي لم تكن حاسمة بالقدر الذي يمكن فرض نوع من السلم والهدوء لمدة طويلة بين المرينيين والمسيحيين الأسبان، وكان آخر من عبر إلى الأندلس من المرينيين الأمير أبي مالك بن السلطان أبي الحسن بأمر من والده، وتبعه السلطان نفسه بعد مقتل ولده في موقعة طريف، وبطلب من أمير مملكة بني نصر أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل سنة 740هـ / 1339م، وفيها أيضا لحقت الهزيمة بأبي الحسن واستيحي معسكره وفساطيطه وقتلت نساؤه ومثل العدو بمن⁽⁴⁰⁾.

وهذه الهزيمة توقفت جميع الجهود المرينية في الجهاد بالأندلس، وظلت الأندلس منذ ذلك التاريخ تتقدم تدريجيا نحو المصير المحتوم الذي كان ينتظرها. على يد الأسبان.

أما الجبهة الثانية فهي الجبهة المغربية: وكان أبو الحسن قد استولى على تلمسان مسقطا الدولة الزيانية سنة 737هـ / 1336م، وبذلك حقق جزءا من المشروع، وعندما

عاد من الأندلس يحرق أذبال الهزيمة، شرع في بناء خطة الاستيلاء على ممتلكات أصهاره الحفصيين، تعويضا له عن فشله وهزيمته في الأندلس، وتحقيقا لمشروع إعادة توحيد المغرب، وفي سنة 748هـ/ 1347م استولى على إفريقية تونس، ولكن الدائرة عادت عليه في معركة القيروان مع الأعراب، وانسحاب مجموعة الجند الزياني في الجيش المريني⁽⁴¹⁾، وبذلك تبدد حلمه وفشل مشروع إعادة توحيد المغرب تحت رايته، وزاد من الأمر خطورة أن ابنه أبا عنان فارس أعلن نفسه سلطانا في ظروف سياسية وعسكرية مضطربة، ووسط شائعات بوفاة أبي الحسن، وبالرغم من أن أبا عنان حاول مرة أخرى تحقيق ذلك المشروع بعد وفاة والده، فإنه فشل هو بدوره في ذلك، وبوفاته هو سنة 758هـ/ 1358م، طوي المشروع المريني ثمانيا، وظل المغرب الإسلامي العربي مند ذلك التاريخ يتخبط في خلافاته وصراعاته الداخلية إلى اليوم.

مزايا خاصة في شخصية السلطان أبي الحسن: ومن الاعتبارات المتصلة بشخصية السلطان أبي الحسن، أنه كان يتمتع بشخصية متزنة قوية، وكان على جانب كبير من العلم والمعرفة، والسمو والنبيل وكرم النفس وحسن الأخلاق، قرب إليه العلماء وجعل بلاطه منتدى للعلم والفكر والحوار، وكفي للدلالة على ذلك أنه استصحب معه وهو في طريقه لفتح إفريقية تونس الحفصية حوالي أربعمئة عالم، وكان يتسم بمآثر كثيرة، تحدث عنه فيها ابن مرزوق، وقد كان شاهد عيان، ملازما له لسنوات طويلة، وخصص كتابا له عن مآثره ومحاسنه⁽⁴²⁾، ويرى أن من مآثره قيامه بحركة عمرانية ومعمارية كثيفة في مدن المغربين الأقصى والأوسط، وخصص له فيها أبوابا كثيرة أتى فيها على ذكر العشرات من المنشآت الدينية والمدنية والعسكرية وبناء الطرق والجسار والموانئ⁽⁴³⁾، ومن هنا فإن قيام أبي الحسن ببناء مجموعته المعمارية في العباد تلمسان يدخل ضمن التكوين النفسي لهذا السلطان وما يتمتع به من صفات الهمة والعظمة وسمو النفس، فضلا عن أنه كان يعتبر تلمسان جزءا من مملكاته، ولم

يكن ينظر إليها على أنها بلد أجنبي عنه، وهو غازي له مستولي عليه أو غاصب له، مما جعله يدرج الجيش الزياني في جيوشه بعد دخوله تلمسان، وقد كان ذلك أحد أسباب هزيمته في القيروان بإفريقية تونس.

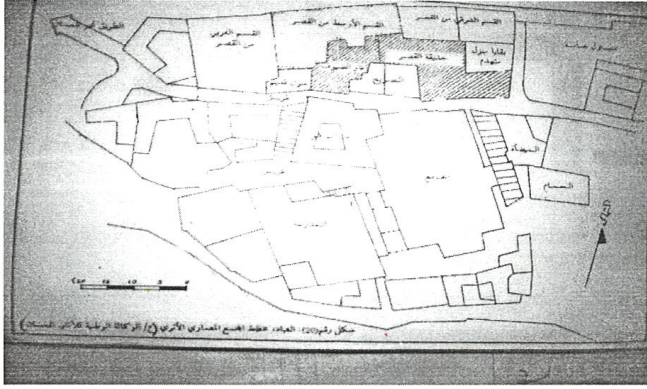
أهمية العباد الفوقي الديني والثقافي والعلمي:

أما اختيار أبي الحسن للعباد الفوقي لبناء هذه المجموعة المعمارية، فذلك أن العباد الفوقي، فضلا عما كان يتمتع به موقعه من هدوء وعلو وجمال وخضرة ومياه، فهو مركز علمي وثقافي وديني يضم مجموعة من المنشآت الدينية كالمساجد والزوايا والرباطات وقبور الصلحاء وأضرحتهم، وأهم تلك الأضرحة أو القبور ضريح أو قبر الإمام الزاهد المتصوف العالم شيخ المشايخ وقدوة الأئمة أبي مدين شعيب، فاختيار المكان كان لشهرته الدينية والعلمية، ولموقعه في نفوس الناس من جميع الشرائح الاجتماعية، توجّه قبر أبي مدين الذي كان مزارا ومحجا من مصر والشام والعراق والسوس الأقصى على حد تعبير يحيى بن خلدون⁽⁴⁴⁾، ولا شك أن هذه الأعمال الحضارية التي أقامها السلطان في هذا الموقع بالذات وقدمها كأعمال بر وحسنة تبركا بالولي الصالح أبي مدين، سوف تزيد من الدعاية له والتقبل لمشاريعه السياسية في الأوساط النافذة في المجتمع والمؤطرة له، وهم الأئمة والعلماء والمتصوفة الزهاد، وبالتالي يزداد رصيده وسط عامة سكان تلمسان وتقبلهم لأعماله كجانب من جوانب التأثير الاجتماعي، فتنوع وظائف المجموعة المعمارية كان يهدف خدمة أغراض سياسية بالتأثير على مختلف الشرائح الاجتماعية والظهور أمامهم بمظهر راعي الدين والعلم وخدام مصالح المسلمين، وذلك بإرضائهم جميعا: المساجد والأضرحة لكافة شرائح المجتمع، والمدارس للعلماء وطلبة العلم، وللمتصوفة والصلحاء والزهاد: الزوايا، أما المرافق العامة الأخرى وهي الحمام والميضأة، فهي مكملة للمباني الرئيسية السابقة.

وما يؤكد ذلك أن هذه الأعمال الحضارية وما اتسمت به من فخامة وضخامة لمحي تعبیر عن عظمة الملك وعلو الهمة التي تميز بهما السلطان أبي الحسن من جهة، ومن جهة أخرى كان يرمي من ورائها التأثير المباشر على سكان تلمسان وحملهم على التجاوب معه والتزام جانبه، ويتجلى ذلك أيضا في تعابير ابن مرزوق عن تلك المظاهر المعمارية بقوله عن بعض المنشآت التي أقامها في تلمسان أو العباد «وكثر في دولته العمارات وامتدت الآمال، وأن ما شيد بمنصورة تلمسان لم ير الراؤون مثلها ولا وصف الواصفون مثل وصفها، وأن ثريا جامعها تشتمل على ألف مشكاة.. وأما المنبر فقد أجمع الصناع على أنه لم يعمل مثله في المعمور⁽⁴⁵⁾»، وتذهب الكتابات المنقوشة على هذه المنشآت المعمارية من الآيات القرآنية والأدعية هذا المذهب، وتؤكد هذا المنحى السياسي لأبي الحسن.

موقع المجموعة المعمارية من العباد الفوقي: (شكل 3).

تقع المجموعة المعمارية في مكان أسفل الكتلة الصخرية لمنحدر جبل هي امتداد لجبل السبعة شيوخ، المتصلة بمضبة لالا سني، وتندرج المجموعة في انحدارها من أعلى إلى أسفل في خط: قمته المدرسة الشهيرة بمدرسة ابن خلدون وهي تشرف وتواجه الجزء الجنوبي الغربي لبيت صلاة الجامع، ويفصلها عنه طريق يلتف حول حائط قبلة بيت صلاته، يليها جامع سيدي أبي مدين، وإلى الشرق منه (يميناً) حمام سيدي أبي مدين وأسفله الميضأة، وهما في مواجهة الواجهة الشرقية للجامع يفصلهما عنه طريق عرضه حوالي 5 - 6م، وأسفل الجامع إلى الشمال ضريح سيدي أبي مدين ويشرف الجامع بمدخله وواجهته الرئيسية الشمالية الشرقية على واجهة الضريح ومدخله الرئيسي، يلي الضريح شمالا دارا تعرف باسم قصر السلطان تشغل أدنى المجموعة المعمارية يشرف عليها الضريح بقبته، وتمتد على مساحة تقدر بحوالي 600م مربع.



شكل 3: حي العباد الفوقي: المنشآت المرينية للسلطان أبي الحسن

الجامع:

يحتل هذا الجامع وسط المجموعة المعمارية التي تتصل بالطريق العام الوحيد الذي يمتد بين العباد السفلي والعلوي، وقد بني الجامع على أرض كانت تشغلها بساتين إشتراها أبو الحسن من أصحابها هي وما يجاورها من الأراضي بما يرضيهم من الأسعار⁽¹⁶⁾، وشيد مبناه على المصطبة الصخرية أسفل التل الجبلي الصخري الذي كان يعيق عملية البناء، فتم إعداده بنقره وتكسير جزء منه على شكل خندق إحتله بيت صلاة الجامع بحائط قبلته، يحيطه من جهاته الثلاثة الغربية والجنوبية والشرقية ممرا على هيئة رواق مفتوح عرضه حوالي 4 م يسمح بحرية الحركة والتنقل حول الجامع. وقد ربط الجامع في ركنيه الشرقي والغربي إلى المرتفع الذي تقوم عليه المدرسة وذلك بأقواس تعلو الممر تدعيما له، كما يربطه به قبو متقاطع عند مدخل الرواق في الغرب تغطية للباب الجاني لبيت الصلاة، حيث توجد هنا غرفة صغيرة تابعة للمسجد تواجه

بابه الجاني المذكور، وكانت ملتصقة بالكتلة الصخرية المستخدمة كقاعدة للمدرسة المقابلة للجامع. وتعرض الرواق بأقواسه التدعيمية مع مرور الزمن إلى التدهم، والممر المحيط بالجامع إلى الإنسداد بسبب تراكم التراب والأنقاض الصخرية المتهدمة عليه، مما صعبت الحركة والتنقل حوله، فبادرت إدارة المعالم التاريخية للسلطات الإستعمارية الفرنسية إلى إعادة إصلاحه وترميمه سنة 1876، وإعادته بفضل تلك الأعمال التجديدية إلى حالته الأولى التي كان عليها⁽⁴⁷⁾.

النصوص الكتابية التأسيسية: أرخ جامع سيدي أبي مدين بنوعين من الكتابات التأسيسية أو التأريخية: النصوص التأريخية والنصوص الأثرية.

النصوص التأريخية: وأهم مصدر يؤرخ لتأسيس الجامع هو المسند الصحيح لابن مرزوق الذي خصصه للحديث عن مآثر السلطان المريني أبي الحسن، فهو يقول: «... وأما الجامع الذي بناه (يقصد أبي الحسن) حذا ضريح شيخ المشايخ وقُدوة الأئمة التأخرين من المتصوفين أبي مدين شعيب بن الحسين رضي الله عنه، فهو الذي عز مثاله واتصف بالحسن والوثاق أشكاله أنفق فيه مقدارا جسيما ومالا عظيما. وكان بناؤه على يد عمي (عم المؤلف) وصنو أبي الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق وعلى يدي...»⁽⁴⁸⁾.

وهو في هذا النص وإن لم يذكر التاريخ فإنه ذكر المؤسس وهو أبو الحسن المريني، كما ذكر المشرفين على أعمال البناء وهو ابن مرزوق نفسه وعمه قبله.

النصوص الأثرية: وقد حقق علم الآثار هاته النصوص التي وردت في المصادر المعاصرة وذلك من خلال النقوش الكتابية التسجيلية في الجامع وأهمها:

النص الأثري التأسيسي لجامع سيدي أبي مدين: وهو عبارة عن شريط كتابي على هيئة حزام علوي يحيط إطار المدخل، وذلك بالخط النسخي المغربي الأندلسي،

ومضمونه كالتالي: «... الحمد لله وحده، أمر بتشيد هذا الجامع المبارك السلطان عبد الله علي ابن مولانا السلطان أبي سعيد عثمان ابن مولانا السلطان أبي يوسف يعقوب ابن عبد الحق أيده الله ونصره عام تسعة وثلاثين وسبعماية»⁽⁴⁹⁾ «... نفعهم الله به»⁽⁵⁰⁾

ويبرز في النص ثلاثة عناصر أساسية وهامة تتعلق ب: التأسيس، المؤسس وأهمها نسبه.

ويؤكد هذا النص، نصان آخران كل منهما يذكر إسم المؤسس وهو أبو الحسن

الأول: يذكر التأسيس وإسم المؤسس

والثاني: إضافة إلى ما سبق، يذكر لقب المؤسس، ولم يكن قد ذكر في النص السابق، مع نسبه، ويتبعه الغرض من التأسيس والدعاء للمؤسس.

النص الأول: وهو تكملة للنص التالي، ويقع أسفل منبت عقد البائكة الشرقية ونصها: «أيده الله بالنصر والتمكين والفتح المبين»⁽⁵¹⁾.

وهو منقوش على إحدى العضاضات الحائطية الجانبية للمدخل في قاعدة البائكة الغربية عند منبت العقد، ومضمونها: «هذا ما أمر به مولانا أبو الحسن عبد الله علي».

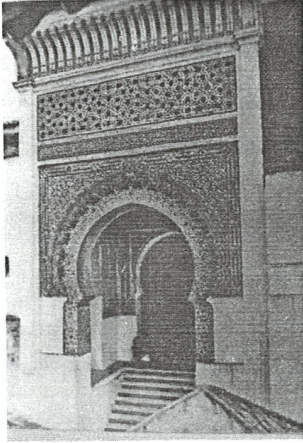
النص الثاني: ويحتل تاج عمودي المحراب وتبدأ الكتابة في التاج الأيسر لتكمل في التاج الأيمن، وهي كالتالي: «هذا ما أمر به مولانا * أمير المسلمين أبو الحسن ابن مولانا أمير * المسلمين أبي يعقوب * ابتغاه * وجه الله العظيم * ورجاه * ثوابه الجسميم كتب الله به أنفع * الحسنات وأرفع الدرجات»⁽⁵²⁾.

والمسجد ذو حجم متوسط مستطيل الشكل مقاساته الخارجية 28.9م طولاً و18.45م عرضاً وسمك حائطه حوالي 1م، ويتكون من ثلاثة واجهات: الرئيسية منها

وهي الشمالية الغربية وهي واجهة تذكارية فُتحت فيها باب احتلت محوره العمودي على المحراب وزخارفها الجصية والفسيفسائية ثرية في مواضيعها، أما الواجهتان الجانبيتان الشرقية والغربية فغفلان من أي مظهر فني وزخرفي، وفتح في كل منهما مدخل تذكاري بارز عن الحائط يؤدي إلى الأسكوب الأول من بيت الصلاة الذي يلي الصحن مباشرة، وكل منهما يقابل الآخر وبمآله.

يتوسط حائط القبلة محراب، يحوف من الداخل، وبارز إلى الخارج، ولا مدخل له باستثناء باب صغير يؤدي إلى حجرة ضيقة يمين المحراب، وتفتح بدورها على الخارج، إضافة إلى دخلة مستطيلة عميقة إلى يساره كان يشغلها المنبر.

وفي الركن الشمالي الغربي ترتفع المذبة لتشرف على العبادين: العلوي والسفلي، حيث يظهر من أعلاها السقف الخارجي للجامع المغطى بقرميد على هيئة هيكل هرمي منحدر يتبع التسقيف والتنظيم الداخلي للبلطات والأساكيب، أما قبة المحراب فيغلفها من الخارج هيكل بنائي رباعي منحدر أكثر إرتفاعا من بقية السقف، وينفصل هذا الهيكل من الخارج عن حائط القبلة ومنحدرات السقف بعضها عن بعض بتممرات صغيرة على هيئة قنوات لتسريب مياه الأمطار، أهمها وأكبرها القناة التي تحيط باستدارة السقف.



لوحة رقم 4: جامع سيدي أبي مدين، المدخل الرئيسي.

شكل 4: مدخل جامع سيدي
أبي مدين

الواجهة ومدخلها الرئيسي: وهي واجهة مستطيلة يتراوح إرتفاعها ما بين 10م و11م يتوسطها المدخل الرئيسي للجامع ويتكون من باين: خارجي وداخلي وما بينهما سقيفة أو رواق مقبب بقبة على هيئة قبة بتأثير من النظام الموحدى ويتخذ المدخل وضعاً محوريا مع المسجد عموديا على المحراب وبلاطه الوسطى، وتأخذ السقيفة في الإرتفاع التدريجي ما بين بابي المدخل عبر درج صاعد من 11مرقات من الرخام المجزء، وهونفس النظام في المساجد المرينية في فاس كمدخل جامع الحمراء⁽⁵³⁾.

وتتكون الواجهة من باب فتح على الخارج باتساع يقدر بـ 3م ويقابل باب الضريح ويفصله عنه رحبة صغيرة. ويعلو فتحة الباب عقد حدوي متجاوز ذو إنكسار خفيف في مفتاحه، ويستند العقد في كل جانب على عضاضة حائطية (كثف أو دعامة جدارية) ويرتفع العقد إلى حوالي 7م من مستوى الأرضية، وهو بذلك فريد في نوعه ومظهره مقارنة بمدخل بلاد المغرب إذا ما استثنينا المداخل الفاطمية والأموية بالأندلس ولا شك أن ذلك تأثر أموي قرطبي⁽⁵⁴⁾ ولعل أهم ميزة تختص بها الواجهة وعقد مدخلها، ظاهره وباطنه وما يعلوه هو الاستخدام الفني المفرط للزليج أو الفسيفساء الخزفية، تشترك فيها زخارف الأرابسك والعناصر الهندسية والكتابية⁽⁵⁵⁾.



الواجهة والمدخل (54) جامع سيدي أبي مرين: الزخارف الهندسية والكتابية والكتابية

شكل 5: زخارف سقيفة المدخل بجامع سيدي أبي مدين

السقيفة: وهي المحصورة بين البابين الداخلي والخارجي يشكلها درج صاعد ينتهي بعتبة واسعة أمام الباب الداخلي، وعلى جانبي مراقي الدرج فُتحت بوابة صغيرة في كل من حائطيها الشرقي والغربي: الغربية منها تؤدي إلى حجرة تحيط بقاعدة المذنة، استخدمت لاستقبال الزوار والحجاج ومبيتهم، أما الشرقية ففتحت على درج نازل إلى حوض مستطيل للوضوء، ينتهي في ركنه الشمالي الشرقي بمحراض بابه منكسر، كما تؤدي البوابة عبر درج صاعد إلى غرفة علوية فوقه، استخدمت ككتاب لتعليم الصبيان.

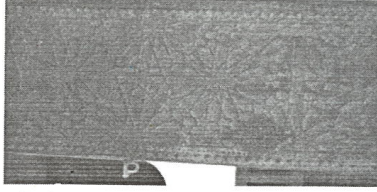
وغطيت السقيفة بكاملها بقبة مقرنصة على درجة كبيرة من الرقة والجمال وذلك فوق الدرج الصاعد للمدخل، وهي على هيئة أقرب إلى القبو منها إلى القبة وقد أشار إليها ابن مرزوق (56).

أما من حيث التكوين الزخرفي فإن الحوائط الجانبية للسقيفة وبوابتها تجمع أرقى ما وصل إليه الفن المغربي الأندلسي من زخارف في عهد أبي الحسن المريني، فالحوائط وإطارات الأبواب مغطاة بطبقة من الزخارف الجصية بارزة أو غائرة تبدأ من ارتفاع قامة الإنسان في حوالي 1.70م لتنتهي عند بداية قاعدة القبة المقرنصة.

وقد وُزعت الزخارف في الحائطين الشرقي والغربي توزيعاً منتظماً متناسقاً ومتتالياً، يجمع بين المواضيع الهندسية والنباتية والكتابية واحتلّت فيما بينها وامتزجت عناصرها واشتبهت، ولكن الفنان طبعها بأسلوب يتميز بوحدة فنية تتدرج فيها العناصر الزخرفية بطريقة مريحة تزيد رقة وجمالاً خطوطها الإنسيابية (57).

الباب الداخلي البرونزي: وهو الباب الذي يوصل مباشرة إلى الصحن، وذلك عبر رواق مؤخر المسجد، ويتألف من فتحة إتساعها 2.80م، تغلق بضلفة من خشب الأرز غلف بصفائح من البرونز أو النحاس عرض كل منها 1.66م وارتفاعها 5م،

وكانت الباب قد تعرضت إلى النهب والسلب والتعرية لبعض أجزائها على يد جنود الإحتلال الفرنسي عند دخولهم تلمسان وذلك حتى ارتفاع 2م مما استدعى إعادة إصلاحها وترميمها حسب أسلوبها القديم⁽⁵⁸⁾.



برجنا رقم (182): جامع سيدي أبي مدين الباب البرونزي الذي الزخارف الهندسية من الأطباق النجمية.

شكل 6: الباب البرونزي لمدخل جامع سيدي أبي مدين بالعباد الفوقي

وقد ذكر ابن مرزوق هاته الباب، وأشاد بصناعتها وصناعاتها، كما أشار إلى المواد المصنوعة منها، ولكنه جعلها من النحاس عوضا عن البرونز كما افتخر بجمال زخارفها

وكثرة ما صرف من مال عليها⁽⁵⁹⁾، وتعد هذه الباب من ضمن أجمل الأعمال الفنية المرينية، وتتألف كل ضلفة من ضلفتها من حاشية مستطيلة مزينة بأربعة أنواع من المسامير مصنوعة بطريقة فنية، ويتوسط ضلعتي الباب داخل الحواشي السابقة زخرفة قوامها طبقا نجميا من ستة عشرة ضلعا وليس من أربعة عشر على حد قول الأخوان مارسية⁽⁶⁰⁾، تنتظم حول نجمة مركزية من 16 رأسا، وعددها في كل ضلفة أربعة أطباق نجمية ماثلة ومتطابقة تمتد من أعلى إلى أسفل ويحصرها في كل ضلفة أنصاف الأطباق في الوسط (ذات 9 أضلاع) وأرباعها في الأركان (5 أضلاع)، وقد اختلفت هذه الأضلاع المشكلة للطبق النجمي في حجمها وتباينت في شكلها، وزين بعضها بعناصر هندسية، وكثير منها بلفاف من أغصان نباتية ملتوية ومتداخلة تتصل أو تنتهي بمراوح خيلية وذلك بأسلوب القطع والتفريغ ثم الترصيع أو الإلصاق على الخشب بحيث تبدو الزخارف كما لو كانت مخزومة، وقد حدد بعضها وأصلح البعض الآخر بطريقة قريبة من الأصل.

مطرقتي الباب: تحتوي كل ضلعة من ضلعتي الباب على مطرقة بإرتفاعها 0.52م وعرضها 0.30م متماثلة ومتطابقة وتتألف كل منها من ثلاثة أجزاء: مثبت أعلى، وحلية وسطى ومقبض سفلي.



شكل 7: مطرقة باب جامع سيدي أبي مدين بالعباد الفوقي

المظهر الداخلي للجامع: (شكل 7) يتكون جامع سيدي أبي مدين في الداخل من صحن أوسط مكشوف تحيطه أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة، أو بيت الصلاة.

بيت الصلاة: ويتخذ شكلا مستطيلا عرضه 18.90م وعمقه 14.10م يتكون من خمس بلاطات عمودية على حائط القبلة وأربعة أساكيب، ويتوقف امتداد البلاطات عند بائكة موازية لحائط القبلة عرضها 3.32م تليها مباشرة دون أن تتجاوزها إليه باستثناء بائكتي البلاطة الوسطى العمودية على القبلة المحورية مع المحراب واسكوبيهما، وذلك لضرورة معمارية تطلبها إقامة قبة أمامه، وتختلف مقاسات البلاطات بعضها عن بعض، فالبلاطة العمودية على حائط القبلة المحورية على المحراب اتساعها 3.5م بينما اتساع البلاطتين المجاورتين لها لا يزيد عن 3.10م أما البلاطتان المتطرفتان فاتساع كل منها 3م، وبذلك تشكل البلاطة الوسطى العمودية على المحراب مع البلاطة الموازية للقبلة وبطريقة شديدة الانتظام والتناظر اتخذت مظهر حرف اللام الأوسط مقلوب (أوعلى شكل حرف T اللاتيني على حد قول المستشرقين والدارسين الغربيين) (61).

وقد فتح على بيت الصلاة من جهتيه الشرقية والغربية بابان متقابلان ومتطابقان يؤدي كل منهما إلى الأسكوب الرابع الذي يلي الصحن من حائط القبلة، وتتكون كل منهما معماريا من هيكل خارجي بارز عن حائطها بـ 2.30م واتساع كل

منها بـ 5م، وتتألف من فتحتين: داخلية وخارجية تفصل بينهما سقيفة أو (دركاه) ويقدر اتساع الفتحة 2م أما السقيفة فمستطيلة مقاساتها 2.70م و1.70م ويُغلق الباب فيهما بضلفة خشبية ذات مسامير عادية، ويفصل بيت الصلاة عن الصحن بائكة من خمسة عقود يشرف بثلاثة منها عليه.

المحراب: (شكل 8). يتوسط حائط القبلة ويتكون معماريا من حنية عى شكل سداسي اتساعها 1.70م وعمقها 2.20م، وامتداد أضلاعها العمودية 1.38م والأضلاع الأخرى يتراوح امتدادها بين 0.67م و0.69م.



(شكل 8):
محراب جامع سيدي
أبي مدين بالعباد الفوقي

ويتكون المحراب فنيا من زخارف جصية محفورة وملونة اختلطت فيها الزخارف وتنوعت واشتملت على العناصر الكتابية والنباتية والهندسية وتتألف من زخارف داخلية وخارجية.

أما الزخارف الداخلية فهي عبارة عن قبيبة مقرنصة، وإفريز كتابي للآية 125 - 126 من سورة النساء ثم بائكة معقودة وأخيرا جزء سفلي خال من الزخرفة.

أما واجهة المحراب فهي عبارة عن عقد مصنح وإطارات وأشرطة كتابية، ويعلو ذلك كله تكوين زخرفي من لوحات ودخلات جصية ملونة تتخللها شبابيك للإضاءة والتهوية وأشرطة وأفاريز زخرفية مختلفة الشكل والحجم ومتنوعة الزخارف.

عقد المحراب وإطاره: يتميز عقد المحراب عن غيره من عقود الجامع بأنه من النوع المسنح على شكل حذوي.

السنجات: وهي سنجات مشعة في لونها بين الأزرق الفاتح والبني وتشكل عقد المحراب الحذوي ويقدر عددها بـ 37 سنجة متماثلة فيما بينها شكلا وتكويناً زخرفياً، فهي مستطيلة قاعدتها السفلية خط مستقيم وتأخذ في الاتساع لتضيق في قمتها متخذة شكلاً ثلاثي الفصوص، وقوام زخارفها عناصر نباتية وهندسية، وهي نفس العناصر التي تشغل أركان العقد.

وتلتفت بالمحراب أشربة كتابية بالخطين الكوفي والنسخي قوامها عبارات دينية بالخط الكوفي على أرضية نباتية مثل الشهادة، وشعار المرينيين: الله ربنا محمد رسولنا القرآن إمامنا (شكل 8). أو آيات قرآنية كثيرة ذات مضامين كثيرة كتعمير المساجد، والآيات 16-21 من سورة التوبة والحث على سقاية الحج وعمارة المسجد الحرام والحث على الجهاد، والبسملة والحفاظ على الصلوات والصلاة الوسطى (سورة البقرة، الآية 238، والجزء الأول من الآية 239، من سورة البقرة والآية 196 من نفس السورة. وجزء من وسط الآية 196 من سورة البقرة)، إضافة إلى مواضيع زخرفية كثيفة نباتية وهندسية.

إن جامع سيدي أبي مدين يعد من الناحية المعمارية والفنية والجمالية من أكثر المساجد ثراء بالجزائر، كما تعبر زخارفه على أرقى ما وصلت إليه الأساليب الفنية المغربية الأندلسية، امتزجت فيه الأصباغ والألوان بمختلف الزخارف في تألف وانسجام بطريقة أخافت الأخوان العالمان الفقيهان ابني الإمام وهما يزوران المسجد برفقة مؤسسه أبي الحسن وكتابه وكاتم سره ابن مرزوق، فأنكرا هذه الثروة الفنية المبالغ فيها وأما ستلهي المصلين عن عبادتهم، فانبرى لهما ابن مرزوق في حوار علمي

شيق استعرضت فيه الحجاج والأدلة بإباحة الزينة والجمال من طرفه في المساجد أو الإعتراض عليها وتكريهها من محاوريه (62).

القباب والأسقف: يتكون السقف من شكل على هيئة هرم ناقص أشبه بأقباء تتبع نظام البلاطات من حيث اتساعها واتجاهها، وليست بطبقة جصية سميكة حفرت فيها زخارف نجمية على هيئة الأطباق. أما القباب فقد استخدمت في المدخل الرئيسي وأمام المحراب، وكلها من النوع المقرنص، الأولى متأثرة بالقباب الموحدية والثانية تعرضت للإصلاح والترميم خلال العهد العثماني.

الحوامل/ الأعمدة والدعامات: تتألف مجموعة حوامل الجامع من دعامات وأعمدة يقدر عددها بـ 26 حاملا، 24 منها دعامات وعمودين اثنين يكتنفان المحراب، وقد بنيت الدعامات بالآجر والطابية ولُبست بطبقة من الملاط ودهنت بالجير، أما العمودان فمن الرخام، والدعامات على شكل متقاطع أو لام أوسط أو مربعة أو مستطيلة.

أما العمودان فيكتنفان المحراب وهما من الرخام المجزع نصفهما مشغول في الحائط ويرتكز عليهما عقده، ويقدر ارتفاعهما 1.65م وقطر بدنها 0.11م،

العقود: تتميز عقود الجامع بكونها من النوع التقليدي المغربي الأندلسي، فهي عقود حدوية متجاوزة لنصف الدائرة منكسرة قليلا في مفتاحها، ولعل أهم تلك العقود هو عقد المحراب وذلك لما يتميز به من تكوين معماري وفني، فهو من العقود المسنجة على النمط المغربي الأندلسي، كما تحيط بالعقود وتكسو بطونها وكوشاتها وأركانها زخارف نباتية وهندسية وكتابية.

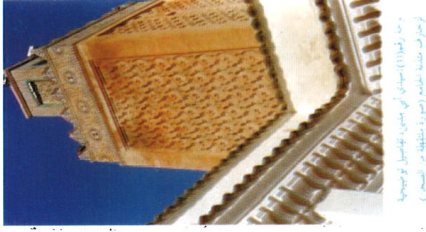
الصحن: وهو صحن مكشوف شبه مربع مقاساته 11.35م عرضا 10.20م عمقا على جانبيه الشرقي والغربي مجنبتان من رواق واحد.

ويتوسط صحن الجامع حوض صغير مستطيل (1.5م 2م)، مياهه جارية وبمنتصف الضلع الجنوبي من الصحن في محور مع المحراب وذلك عبر البلاطة الوسطى العمودية وُضعت عترة⁽⁶³⁾، على نفس شكل المحراب، خماسية الأضلاع اتساعها 1.50م وعمقها 1.30م، تسمح بوقوف المبلغ للصفوف الخلفية للمصلين. وينتهي الصحن في الأعلى ببروز منحني إلى الداخل على هيئة طنف، وهو صورة مصغرة لطنف الواجهة الرئيسية ويسمح ذلك البروز المنحني إلى الداخل بحماية الحوائط من التغيرات الجوية.

مجنبتا الصحن: يكتنف الصحن مجنبتان شرقية وغربية من رواق واحد هو امتداد للبلاطة المتطرفة لبيت الصلاة، وتشرف كل منهما على الصحن ببائكة من ثلاثة عقود وتتوقف كل منهما عند رواق مؤخر الجامع ولا تتجاوزه إلى حائطه.

مؤخر الجامع: ويتكون من رواق واحد ببائكة من خمسة عقود تشرف بثلاثة منها على الصحن، وعرضه 2.30م، وفتحت باب على أسكوبه الشمالي الغربي اتساعها 3.1م، يوصل إلى داخل المئذنة الملتصقة بحائط مؤخر الجامع مكونة مع واجهته كتلة المدخل، وقد تعرض مؤخر الجامع لتغييرات تمثلت في تحويل الرواق إلى سدة مرتفعة لصلاة النساء على جانبي المدخل.

المئذنة: (شكل 9). تحتل المئذنة الركن الشمالي الغربي للجامع في مقابل الأسكوب الغربي لرواق مؤخره، وتشابه من حيث شكلها وتخطيطها ونظامها المعماري مع المآذن المغربية الأندلسية بصفة عامة والمآذن المرينية بالمغرب والزيانية بتلمسان بصفة خاصة، ويقدر ارتفاعها الكلي بحوالي 27.5م وتتكون معماریاً من جزئين: برج سفلي وجوسق علوي.



(شكل 9):
منذنة جامع سيدي أبي
مدين بالعباد الفوقي

البرج السفلي: وقاعدته مربعة طول ضلعها من الخارج 4.5م ومن الداخل 3.30م، وسمك جدارها 0.60م وارتفاع البرج الكلي حوالي 23.70م وتحيط بالقاعدة ملحقات استغلت قديما لصالح الزوار والحجاج الذين كانوا يعبرون تلمسان.

نظامه الداخلي: ويفتح باب النواة المركزية على شكل دعامة مربعة صماء طول قاعدتها 1.85م، إلى اليسار منها غرفة صغيرة مستطيلة يغطيها قبة متقاطع، ويوصل إلى أعلى البرج عبر درج صاعد يلتف حول النواة المركزية، عدد مرقاته 86 مرقاة، اتساع كل منها 0.75م، وتتوزع على دورات تتكون كل منها من خمسة مراقي مغطاة بأقباء نصف أسطوانية تتحول في الأركان إلى أقباء متقاطعة، وأضيئت الدورات بنوافذ مستطيلة ضيقة تحتل من الخارج إطارا مستطيلا وسط شبكات من زخارف المعينات أو داخل العقود الزخرفية، ويُنفذ إلى سطح البرج الأول عبر باب معقود بعقد منفرج. ويقوم في وسط هذا السطح الجوسق العلوي للمندنة أو البرج الثاني حيث تتراجع جدرانه عن جدران البرج الأسفل بما يسمح للمؤذن بالحركة والطواف حوله.

الجوسق: وهو مربع الشكل طول قاعدته 1.88م وارتفاعه 5.40م يُدخل إليه من باب ضيق معقود بعقد حذوي مذهب تتقدمه عتبة وتغطي الجوسق قبة نصف دائرية تبدو من الداخل ضحلة، وينتصب في أعلاها جامور ذي ثلاثة تفافيح كبيرة ذهبية اللون تتدرج في حجمها من الأسفل إلى الأعلى يعلوها هلال، وقد أشار ابن مرزوق

إلى هذا الجامور بتفانيه، غير أنه يرجح أن الهلال نصب حديثا، ذلك أن اللوحة التي نشرها جورج مارسيه لا تظهر إلا الجامور بتفانيه دون الهلال.

التكوين الزخرفي للمئذنة: تتكون المئذنة من حيث الزخارف في الواجهات الأربعة بجزئتها السفلي والعلوي من بانكات معقودة، وعناصر متنوعة يغلب عليها تشبيكات المعينات من النمط المعروف بالدرج والكتف، وتنتهي في أعلى البرج الأول بإفريز من الزليج على شكل حزام يمتد على الأوجه الأربعة قوامها الأطباق النجمية، وتشغل قطع الزليج المتعدد الألوان الفراغات بين المعينات وما يتصل بها من فراغات العناصر الزخرفية الأخرى بحيث تبدو المئذنة عن بعد كوهج متألئ بانعكاس الشمس على أوجهها.

زخارف الجوسق: يحمل كل وجه منه حشوة مستطيلة قوامها تشبيكة من المعينات قائمة على عقد رخوي ذي خطوط تحديدية من الفصوص والدلايات يشكل مفتاحه فص واحد أو فصان، ويكسو مركز العقد وبنيقاته وفراغ المعينات زخارف من الزليج المتعدد الألوان قوامها عناصر نباتية وهندسية أساسها وريدة ثلاثية، ويحيط هذه التشبيكات شريط من الزليج على شكل أطباق نجمية ذات 12. ضلعا وعناصر أخرى عبارة عن حاشية ذات سيقان نباتية.

إن جامع سيدي أبي مدين يعد معماريا وفنيا من أبرز المساجد المرينية في المغرب الأوسط والأقصى، وبالرغم من أنه تأثر بجامع الحمراء بفاس الجديدة، ولكنه كان مصدرا بدوره لبعض المساجد التي أتت بعده بتلمسان، كجامع سيدي الحلوي المريني وجامع سيدي إبراهيم الزباني، وجسد أكثر من غيره الطراز المعماري والفني المريني وجماليته، إذ يمكن للباحث الوقوف فيه على درجة التطور ومستوى الجمالية⁽⁶⁴⁾.

المدرسة: (شكل 10). إذا كانت المدارس قد نشأت في المشرق بإيران والعراق على يد السلاجقة ووزير دولتهم نظام الملك، فلما انتشرت بسرعة كبيرة في أمصاره،

وامتدت إلى الشام ومصر في العصر الأيوبي، ومن مصر انتقلت إلى تونس الحفصية ثم فاس المرينية، وأخيرا حطت رحالها في تلمسان الزيرية.



(شكل 10):
مدخل مدرسة
سيدي أبي مدين

(لوحة رقم 51). مدرسة سيدي أبي مدين. وحارث عبد. مدخل المدرسة وواجهتها.

أشارت النصوص التاريخية إلى سبع مدارس زيرية، اندثرت جميعها ولم يبق منها غير مدرسة سيدي أبي مدين بالعباد الفوقي، وهي المدرسة التي شيدها السلطان أبي الحسن صاحب المآثر الكبرى في هذا الصدد بمدينة فاس، كما تعتبر الدولة المرينية من أكثر الدويلات المغربية حيوية ونشاطا في مجال تشييد المؤسسات العلمية والمدارس، وأنفق سلاطينها وأمرؤها على عمارتها وتزيينها أموالا كثيرة فجاءت على درجة كبيرة من الفخامة والأبهة⁽⁶⁵⁾، بل واتخذوا من بناء المدارس مظهرا لسياستهم الدينية والعلمية، لدرجة أن ابن مرزوق أحصى ما يربو على خمسة عشر مدرسة بناها أبو الحسن في المغرب الأقصى والأوسط، من بينها مدرسة سيدي أبي مدين⁽⁶⁶⁾..

وقد أرخت لوحة الأوقاف الرخامية بالجامع للمدرسة بهذه العبارات: «الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، أمر ببناء هذا الجامع المبارك والمدرسة المتصلة بغريبه مولانا السلطان الأعدل أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبو الحسن»⁽⁶⁷⁾. غير أن هناك تاريخ آخر يشير لبناء المدرسة يرجح أنه تاريخ الإنتهاء من الأشغال وبداية إضطلاع المدرسة بوظيفتها العلمية، وهو تاريخ 7 ربيع الثانية

749هـ/أوت 1347م، وذلك في أبيات شعرية عددها تسعة، نقشت في شريط أسفل بداية ارتفاع قبة بيت صلاة المدرسة⁽⁶⁸⁾. وكانت المدرسة ما زالت تحظى بالعناية والاهتمام، وتقوم بمهمتها على أحسن وجه في أوائل القرن 10هـ/16م، حيث يصفها حسن الوزان بقوله أنها جميلة جدا. وبالرغم من إقامة الزياني بتلمسان مدة سنة ونصف وتدريسه لطلبتها في العباد، فإنه لم يأت على ذكر المدرسة⁽⁶⁹⁾. وعندما زارها بارجيس في منتصف القرن 13هـ/19م كانت قد تحولت إلى حالة يرثى لها من الإهمال والتهدم، فبعض حوائطها سقطت وفوارتها وحوض صحنها امتلأ كل منهما بالردم والركام، ولاشك أن الاحتلال الفرنسي وإدارته في غزوه لتلمسان يتحملان المسؤولية الرئيسية في المآل الذي آلت إليه المدرسة وحي العباد بصفة عامة⁽⁷⁰⁾. فإن الرجال التحقوا بجميوش الأمير عبد القادر، وبعدها فر كثير من السكان عن قراهم ومناطق سكنهم إلى أماكن أكثر أمنا، وهو ما حصل لحي العباد عند الغزو الاستعماري لتلمسان، فتدهورت حالته العمرانية والمعمارية الشيء الذي يفسر حالات الإهمال التي عاشتها مؤسساته خلال أواخر الربع الثاني من القرن 19م والربع الثالث منه.

تتخذ المدرسة شكلا هندسيا مستطيلا يمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي تفتح بمدخل تذكاري على شرفة صغيرة تتقدمه في واجهة بسيطة شكلا وزخرفة، ويوصل إليه عبر درج صاعد ذي 15 مرقاة حجرية ويقع بابه في خط محوري مع مدخل بيت الصلاة ومحراه عبر الصحن وهو بذلك يشبه مداخل الجوامع المرينية كسيدي أبي مدين، أما المدخل نفسه فيحتل مستطيلا عموديا بارزا عن سمت حائط الواجهة.

والمدخل معقود بعقد حدوي مركب ومتجاوز اتساعه 2.47م يحيطه عقد آخر مفصص ويشغل أركان العقد من الجانبين فسيفساء خزفية قوامها طبق نجمي مركب يتألف من نجمة مركزية ذات 16 رأسا تشع منها أضلاع باللون الأبيض أو البي،

ويحيط بذلك أطباق نجمية أخرى خماسية الأضلاع تحيط بنجوم مركزية أخرى. وإلى جانب هاته الأطباق النجمية أطباق أخرى أصغر حجما قام الفنان فيها بتنظيم زخرفته متدرجا في حجم الأطباق من الأكبر إلى الأصغر في تأليف وانسجام وتطابق وتناغم ينم عن مقدرة فائقة وتحكم في الصنعة. ويسود هذه التكوينات ألوان متعددة كثيفة وساطعة أجملها على الإطلاق اللون الأبيض ثم البني والأزرق والأصفر والأخضر، كما قد يتخذ اللون الواحد أكثر من درجة لونية ما عدا الأبيض، وبلي هذا التكوين الزخرفي إطار آخر يحيط المدخل في أعلاه وعلى يساره، ويبدو أنه كان ممتدا على يمينه بطريقة مماثلة للجهة المقابلة ولكنه اندثر في وقت مجهول، ويتألف من زخارف قوامها عناصر على هيئة المعينات التي تعرف باسم الدرج والكثف⁽⁷¹⁾ الشبيهة بزخارف واجهة مئذنة الجامع المجاور حيث تحتل وسط المعينات ورقة ثلاثية ترصعها هي والمعينات قطع خزفية من الزليخ باللونين الأخضر والبني.

وإلى يسار المدخل أسفل امتداد الإطار السابق على مستوى منبت العقد تقوم لوحة فنية في غاية الرقة والجمال وحسن التأليف ودقة الصنع، قوامها عقد حلوي مفصص مركب، يستند منبته وإطاره من الجانبين على صف من أعمدة صغيرة، ويشكل مفتاح العقد دائرة صغيرة يتركز عليها معين قائم على رأسه تتوسطه دائرة أخرى، ينتهي في أعلاه بامتداد على شكل لسان على هيئة وهج مضئ كشمعة مشتعلة لاشك أن ذلك له دلالاته الفلسفية والدينية لدى الفنان المسلم، وقد صيغ هذا التكوين الزخرفي بزليج متعدد الألوان أساسها اللون الأبيض والأزرق والبني بدرجتيه الفاتح والغامق. غير أن التفاصيل السفلية لهاته اللوحة القائمة حاليا في المدخل تختلف عن تفاصيل اللوحة التي نشرها الأخوان مارسيه في أوائل القرن الحالي 1903م⁽⁷²⁾.

وننتهي الواجهة بطنّف بارز مائل على هيئة منحدر مغطى بقرميد نصف أسطواني جزؤه الخارجي أخضر اللون مزجج، وذلك لحماية المدخل من عوامل

الطقس والأمطار شتاء. وبلي باب الدخول دركاه (سقيفة) عبارة عن فراغ مستطيل الشكل مقاساته 2.50م × 1.35م وهو همزة الوصل بين الباب والصحن وعلى جانبي السقيفة بابان صغيران: الأيمن منكسر يؤدي إلى الميضأة عبر رواق مستطيل، والأيسر مفتوح على درج صاعد إلى الطابق العلوي.

الصحن: وهو مستطيل يمتد من الجنوب إلى الشمال عمقه أكبر من عرضه ومقاساته 16×14م، يحيطه من جهاته الأربعة رواق عرضه 1.75م يشرف على الصحن من جهتيه الجنوبية والشمالية ببائكة ثلاثية العقود بينما بائكيه الشرقية والغربية رباعية، وترتكز العقود الحدودية المنكسرة قليلا في مفتاحها على دعائم مستطيلة أو على شكل حرف اللام الأوسط في الأركان ارتفاعها 1.60م، وتختلف المسافة بين الدعائم في الجهتين الشمالية والجنوبية: فالوسطى 2.60م والجانبيتين 1.40م بينما المسافة بين الدعائم الباقية في الجهتين الشرقية والغربية حوالي 2.20م.

ويتوسط الصحن حوض مستطيل مقاساته 3.20م × 2.60م يتصل جنوبا بحوض آخر مربع الشكل أصغر حجما، وذلك عبر ساقية صغيرة طولها 1.60م ويرجح أن الحوض الصغير كانت به فوارة تنفث مياهها جارية كانت تصب في الحوض الكبير. وقد غطيت أرضية الصحن بتبليطات من زليج مربع الشكل صغير الحجم (10سم × 10سم) ذي ألوان متعددة.

بيوت الطلبة: ينتهي الرواقان الشرقي والغربي نحو الخارج بمجموعة من الحجرات عددها 12 حجرة بمعدل 6 حجرات في كل جهة ويعلوها عددا مماثلا في الطابق العلوي.

والحجرات مستطيلة الشكل مقاساتها 2.80م × 2م تفتح على الرواق المحيط بالصحن بأبواب صغيرة معقودة بعقد (متجاوز منكسر ارتفاعه 1.85م واتساعه

0.70م ويعلو كل باب من أبواب الحجرات نافذة صغيرة للإضاءة والتهوية عرضها 0.35م وتحتوي كل حجرة في داخلها على دخلة حائطية مستطيلة على هيئة رف عرضه 0.37م لوضع الكتب أو المصباح الزيتي. وقد وزعت هاته الحجرات بطريقة نمطية متماثلة ومتناظرة.

المصلى: وهو يتصدر الصحن في جهته الجنوبية، ويعد بمثابة مصلى وقاعة درس في آن واحد، يفتح على الصحن بباب محوري مع المحراب والمدخل الرئيسي عرضه 2.40م ويغلق بمصراعين.

أما القاعة نفسها فمربعة الشكل طول ضلعها 5.70م يتصدر حائط قبلتها الجنوبي الشرقي محراب مجوف خماسي الأضلاع عرض فتحته 1.50م وعمقه 2م، تغطيه من الداخل قببية صغيرة تستند على شريط زخرفي، أما جزؤه السفلي فكسي ببلاطات خزفية من العصر العثماني، أما من الخارج فيعلوه عقد حدوي منكسر يستند على عمودين رخامين مشغولين بدههما أملس وتاجهما مغربي الطراز مربع الشكل ذي زخارف نباتية وهندسية، والعقد مفصص بفصوص على هيئة السنجات تتوسطها زخارف قوامها العناصر الهندسية والنباتية من المراوح وأنصافها والزهيرات والأوراق، ويعلو مفتاح العقد وأركانه زخارف مماثلة لزخارف السنجات. وأهم المضامين الكتابية للأشرطة المحيطة بالمحراب الآية: وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين، وعبارات: الملك لله، اليمين لله، البقاء لله.

سقف القاعة: وقد غطيت القاعة بكاملها بقبة خشبية كبيرة يكسوها من الخارج هيكل هرمي رباعي مبني، ويتوسط القبة الداخلية نجمة مركزية مشعة ذات 32 ضلعا تشع نحو الخارج بأضلاع ملونة بألوان ذهبية صفراء تشكل في النهاية طبقا نجميا أضلاعه بعدد أضلاع النجمة، ورصع كل ركن من أركانها برصع ذلك الطبق

النجمي. ويمتد أسفل القبة إفريز هو بمثابة قاعدة لها يتضمن بالخط النسخي المغربي الأندلسي مضمونه أبيات شعرية تذكر تاريخ التأسيس 747هـ/1346م⁽⁷³⁾.

ويتضح من الفحص الأثري والدراسات والنصوص التاريخية أن المدرسة تعرضت كبقية المجموعة المعمارية في العباد في أجزاء كثيرة منها إلى الترميم والإصلاح في عمارتها وزخارفها وذلك في فترات مختلفة، وإذا كانت قد حافظت على جوهرها المعماري فقد أتت الترميمات على الكثير من زينتها⁽⁷⁴⁾.

ملاحق المدرسة: يكتنف قاعة الدرس أو المصلى على جانبيها الشرقي والغربي جناحين يفتح كل منهما على الرواق الذي يتقدم بيوت الطلبة.

الجناح الشرقي: وهو عبارة عن مجموعة من الحجرات عددها أربعة، يتقدمها فناء صغير مكشوف، يتصل بالرواق الشرقي المشرف على صحن المدرسة بباب عرضه 1.34م، أما الفناء فمستطيل الشكل مقاساته 3.20م عرضا و3.85م عمقا تفتح عليه حجرتان جنوبا وعددا مماثلا من الحجرات شرقا، ويرجح أن حجرات هذا الجناح كانت مأوى للمدرسي المدرسة وأساتذتها لموقعه المنعزل والمتميز عن بقية الأجنحة.

الجناح الغربي: ويتصل بالرواق المشرف على الصحن في جهته الغربية بباب مماثل لباب الجناح الشرقي، ويتكون من فراغ مربع غير مسقوف حاليا يتوسطه جزء من حائط مندر يقسمه إلى قسمين متساويين كل منهما مستطيل الشكل يمتدان من الشرق إلى الغرب. ويرجح أن هذا الجناح كان مخزنا يختص بحفظ أدوات المدرسة وحاجاتها، أو ربما كان مكتبة وقد أهمل جورج مارسيه هذا الجانب في إشارته إلى المدرسة ضمن كتابه المذكور أعلاه G.et W.Marçis , Les Monuments Arabes de Tlemcen. كما لم يشر إليهما الأستاذ بورويبة.

وقد عاينت في الجزء الخلفي الجنوبي للجناح بعض القبور وشواهدا يرجح أنها من الفترة العثمانية وما بعدها وذلك نظرا لطراز الزخارف المحفورة عليها.

الطابق العلوي: يوصل إليه بدرج صاعد منكسر يسار المدخل الرئيسي للمدرسة، ويتكون من رواق يتقدم الغرف عبارة عن ممشى غير مسقوف يعلو أروقة الطابق الأرضي المحيطة بالصحن، وتُفتح عليه غرف مائلة ومطابقة لحجرات الطابق الأرضي، ولكن أبوابها تخلو من النوافذ التي تعلوها لانفتاحها على الفضاء وتحصل من خلاله على الإضاءة والتهوية الكافية عكس الحجرات السفلية التي تقوم الأروقة حاجزة لذلك.

أما الجهة الجنوبية وهي التي تشغلها قاعة الدرس في الطابق الأرضي، فتخلو من الغرف لقيام السقف المنحدر الهرمي الشكل الذي يغطي القبة.

الميضاة: بنيت الميضاة خارج جسم المدرسة ملاصقة بركنها الشمالي الغربي وذلك لأن حكمها من حيث وظيفتها يختلف عن حكم ميضات المساجد، فاستخدامها يختص بالطلبة المقيمين بها فقط، وكان ذلك من القوانين المسيرة للمدرسة التي جعلتها قصرا على طلبة العلم فيها دون غيرهم، إما بنص الواقف أو بتواتر العرف ما لم يكن منصوبا على غير ذلك في الوقفية، وتبعاً لذلك، لم يكن جائزا للغرباء أو العامة من غير الطلبة والموظفين أو المستخدمين فيها الإنتفاع بمرافقها وملحقاتها، بذلك أفق الشيخ أبو الحسن القبسي على ما أورد الونشريسي في فتاويه ونوازه أنه: «... من هذا المعنى لا ينبغي الدخول إلى المدارس لقضاء الحاجة بها والوضوء والشرب من مائها وهو لم يكن من أهلها، ولا أعدت الميضاة والشرب إلا لأهلها...» (75).

وميضاة مدرسة سيدي أبي مدين وإن كانت تختلف من حيث موقعها مع ميضاتي الجامعين السابقين، فإنها متشابهة إلى درجة التطابق معهما من حيث الكتلة المعمارية والتخطيط العام والتوزيع الداخلي.

فهي على هيئة بروز خارجي عن جسم المدرسة، يقدر بـ 5.50م ويشكل هيكلا بناثيا مستطيلا عرضه 7.50م ويوصل إليه عبر دهليز مستطيل طوله 3.50م وعرضه 0.90م، ويفتح عليه بباب عرضه 1م إلى يمين المدخل الرئيسي للمدرسة، ويشكل الدهليز والباب ممرا منكسرا على شكل حرف اللام الابتدائي (ل)، ويؤدي الباب مباشرة إلى فناء مكشوف مستطيل مقاساته 4م × 2.80م، يتصدره في الجهة المقابلة للباب وهي الجهة الشمالية حوض للوضوء مستطيل الشكل مساحته 2.10م × 1.50م يعلوه عقد حلوي متجاوز يشكل ظلة له وتتوزع بيوت الخلاء حول الفناء وتفتح عليه بأبواب ضيقة يتراوح مقاسها بين 0.40م و 0.50م ويقدر عددها بثماني بيوت، وجميعها مستطيلة الشكل الركنية منها متماثلة ومقاساتها 1.60م طولا و 1م عرضا، أما الباقية فهي أيضا متماثلة فيما بينها ومقاساتها 1.40م طولا و 0.90م عرضا، وتعلوها جميعا من الداخل فتحات للإضاءة والتهوية وغطيت بأقنية متقاطعة.

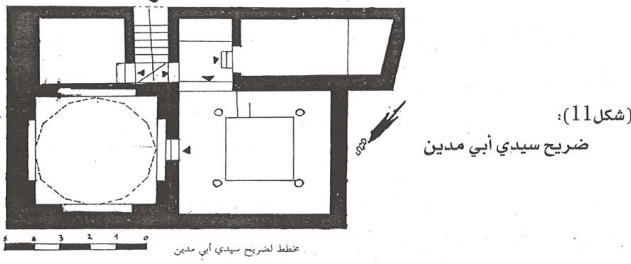
ويلتف حول الحوائط السفلية الأربعة لبيوت الخلاء مياه جارية في ساقية ممتدة ملتصقة بالجدران تكونها أنصاف قنوات فخارية كأرضية لها، وتتصل هاته الساقية بحوض صغير في كل مرحاض يتقدم الحفرة.

أما من حيث التصميم المعماري فإن بيوت الخلاء اتخذت مظهرها منحرفا منكسرا على هيئة حرف اللام الابتدائي في أوضاع مختلفة بحيث يتعذر على الشخص الوقوف في الفناء مشاهدة ما في داخل المرحاض بفضل هذا التخطيط المعماري لها.

الضريح: (شكل 11).

ذكرنا آنفا أن أن اختيار أبا الحسن العباد الفوقي لتشييد مجموعته المعمارية يعود لخصائص موقعه الطبيعية، واحتوائه على قبر أبي مدين كما أن بني مرين لجأوا منذ عهد السلطان أبي سعيد عثمان وخلفائه: أبي الحسن وابنه أبي عنان، إلى بناء مجموعات

متكاملة من العمائر والمؤسسات الدينية والمدنية والعلمية، وأن أبا الحسن طبق ذلك في العباد الفوقي عندما شيد الضريح، وأحاطه بمسجد ومدرسة وحمام وقصر ومسكن، وهذه المجموعة المتكاملة من المباني ما هي إلا تطبيق لما كان المرينيون قد شيده في المقبرة الملكية بسلا⁽⁷⁶⁾ وجزء مهم من هذه المؤسسات في سلا مؤسسها هو السلطان أبو الحسن مؤسس مجموعة مباني العباد العلوي حول ضريح سيدي أبي مدين.



تعرض ضريح سيدي أبي مدين إلى العديد من الإصلاحات والترميمات بعضها جاء بسبب ما حدث له من أضرار بفعل تعاقب الزمن وتوالي الأيام، وبعضها الآخر بفعل الحرائق، وفي كل ذلك ليس بين أيدينا من النصوص والمعلومات ما يجعلنا نؤكد طبيعة تلك الأعمال المتعاقبة ونحدد مظهرها ونمطها، إذا ما استثنينا الأعمال التي جرت فيه بأمر باي وهران محمد الكبير في العهد التركي سنة 1208هـ / 1793م⁽⁷⁷⁾ والتي تركت طابعها القوي عليه.

وقبل ذلك كان الضريح موضع اهتمام سلاطين بني زيان وأمرائهم وفضلاء تلمسان وذوي الثروة والصلاح فيها، بحيث كان كل منهم يدفن بجوار الضريح بوصية منه أو بقرار من ذويه حتى ازدحمت الأماكن من حوله بالقبور على مر الأيام.

فقد أخبرنا ابن خلدون، أن يغمراسن بن زيان بعد مقتل الخليفة الموحيدي السعيد، «...جُهِز ورفع على الأعواد إلى مدفنه بالعباد بمقبرة الشيخ أبي مدين...»

(78)، ولا شك أن يغمراسن قام بأعمال في المقبرة وقبر سيدي أبي مدين، غير أن المعلومات تتفصنا عن ذلك، كما أن الأعمال الجوهرية التي قامت بالضريح على يد أبي الحسن المريني لم تصل إلينا منها إلا النذر اليسير بسبب ما أدخل عليه من أعمال الإصلاح والترميم مثلما ذكرنا، وخاصة في العهد التركي.

الدراسة الوصفية للضريح: يتخذ ضريح سيدي أبي مدين شكلا مستطيلا يمتد محوره الطولي من الشرق إلى الغرب، ويتألف من واجهة رئيسية منفصلة عن حائطه، وجزءان: الضريح يتقدمه صحن ويوصل ما بين الواجهة والضريح منطقة تتألف من درج وملاحق عبارة عن حجرة مغطاة، وفراغ مكشوف تشغله قبور عديدة.

الواجهة الرئيسية: وتحتل الضلع الجنوبي منه ممتدة من الشرق إلى الغرب تقابل الواجهة الشمالية الشرقية للجامع، ولا يفصلها عنه إلا فراغا صغيرا مستطيلا على هيئة رواق يمتد بامتداد واجهة المسجد والضريح معا، ويقع الضريح في مستوى منخفض عن الجامع بسبب انحدار الموقع الطبوغرافي للمنطقة

ويقدر طول الواجهة الرئيسية بـ 11م يتوسطها مدخل تذكاري معقود بارز بروزا خفيفا عرضه 0.90م وارتفاعه حوالي 2م، وتعلوه ظلة بارزة يغطيها سقف من قرميد نصف أسطواني

منطقة الاتصال بين الواجهة ومبنى الضريح: وهي منطقة تأخذ في الانحدار التدريجي نحو الضريح، وذلك عبر درج منكسر، وبعد حوالي 12 درجة يُفتح الدرج بمينا باب صغير يؤدي إلى فراغ مكشوف يُصعد إليه بدرجتين أو ثلاثة ويتخذ الفراغ شكل فناء تشغله مجموعة من القبور ذات شواهد رخامية مغروسة في الأرضية تكسوها بلاطات خزفية.

كما نجد إلى يسار النازل بعد عدة درجات أخرى غرفتي دفن إحداهما مكشوفة والثانية مغطاة، ويشغل كل منها مجموعة من القبور الرخامية وشواهدا مغروسة في الأرضية.

ويتبين من المضمون الكتابي لشواهد القبور في الصحن والغرفة أن المدفونين فيهما كانوا من ذوي المكانة البارزة في المجتمع من الأمراء والعلماء وفضلاء الأمة من الصالحين والزهاد والمتصوفة، وقبورهم متساوية ومتلاصقة ولا يميزها عن بعضها إلا أسماء أصحابها وألقابهم⁽⁷⁹⁾، ومن حيث المدة الزمنية فهي تمتد حتى الثلاثينات من القرن العشرين.

مبنى الضريح: ويتكون من المدفن أو القبة نفسها يتقدمها فناء أو صحن تغطيه قبة خشبية.

الصحن: يُوصل إليه من الدرج بباب معقود بعقد حدوي منكسر عرضه 2.37م، والصحن مربع طول ضلعه 5م يحيطه من جهاته الأربعة رواق مغطى بأقنية نصف أسطوانية، يتراوح عرضه ما بين 1.40م و1.50م. ويشغل أركانه أعمدة من الرخام المجزع الشفاف قواعدا مستديرة وتيجانها مكعبة تحمل عقودا حدوية ذات انكسار خفيف.

وقد نقلت العقود من مدينة المنصورة بعد تدمرها وأعيد استخدامها في الضريح، ويعد صحن الضريح بمثابة سقيفة أو قاعة انتظار للزوار قبل تخطيهم عتبة بابه⁽⁸⁰⁾، وإلى يسار الباب الموصل للصحن بئر يعلو فوهته قائم مضلع من الرخام المجزع الشفاف على هيئة قاعدة مسلوبة إلى الأعلى. وقد تأكلت فوهته بطريقة ملفتة للانتباه بفعل احتكاك السلسلة الحديدية المتصلة بدلو رفع الماء، ويغطي وسط الصحن قبة خشبية، تتركز على قاعدة ثمانية يتخلل كل ضلع من أضلاعها المربعة نافذة مفتوحة

مستطيلة، ويرجح أن القبة والبلاطات التي تكسو الحوائط من ترميمات العصر التركي وما بعده.

المدفن (القبة أو الضريح نفسه): تفتح غرفة الدفن على الصحن الذي يتقدمه، وذلك بمدخل معقود بعقد حدوي مفصص منكسر قليلا.

الجزء العلوي من المدخل: تكسوه زخارف جصية ملونة تمتاز فيها العناصر الكتابية والنباتية والهندسية، وذلك على هيئة أشرطة عمودية حول عقد المدخل وأشرطة وإطارات أفقية تعلوه، أهمه شريط كتابي، يشير إلى الأمر بالتجديد والإصلاح واسم المهندس الذي قام بالأعمال في هذا الضريح ويسمى الهامشي بن صرشميق، والتاريخ 1208هـ / 1793م⁽⁸¹⁾، ومضمون النص الكتابي كالتالي: « الحمد لله * أمر بتنميق هذه * الروضة المباركة المشتملة على ضريح * الشيخ أبي مدين أدركنا الله برضاه * الأمير عبد الله * السيد عبد الله * السيد محمد باي أيده الله ونصره وجعل * لجنة مثلة عام ثمانية ومائتين وألف * أنظر إلى الدر الأنيق تراءت جيد شريف * نظمه فتي عشيق * الهاشمي ابن صرشميق. »

المدفن (القبة أو الضريح) من الداخل: وهو ذو تخطيط مربع الشكل طول ضلعه 4.70م وهو تخطيط أصبح نمطيا معروفا في المشرق مثلما هو الحال في المغرب، ويتكون الضريح من قاعة مربعة تغطيها قبة تقوم على منطقة انتقال من حنايا مخوفة، يليها نطاق مضلع ويشغل الحوائط الأربعة للضريح عقود حدوية كبيرة صماء غائرة، تحيطها أشرطة كتابية بالخط الكوفي، من البسملة ثم سورة الإخلاص مكررة مرتين، وقد فُتحت حول العقود نوافذ صغيرة للإضاءة والتهوية معقودة بعقود توأمية، تكسوها زخارف جصية مخزومة قوامها عناصر هندسية متشابكة على هيئة أطباق نجمية ذات 16 ضلعا وأجزاء منها في الأركان، ويعلو ذلك كله شمسيات أخرى أصغر حجما من النوافذ السابقة ورصعت خروم النوافذ بقطع زجاجية ملونة.

إن التكوين المعماري لضريح سيدي أبي مدين بعقوده الحدودية الحائطية الصماء الكبيرة أثر تأثيراً قويا ومباشرا على بعض الأضرحة الزيانية مثل ضريح سيدي إبراهيم المصمودي الذي بناه السلطان أبي حمو موسى الثاني (760 - 791هـ / 1359 - 1389م) سنة 765هـ / 1364م، ليكون في بداية أمره مدفنا لوالده أبي يعقوب وعميه أبي ثابت وأبي سعيد.

أما أرضية الغرفة فيتوسطها تابوت خشبي من خشب الخرط المخرم، مستطيل الشكل يقوم على قبر سيدي أبي مدين، وفي إحدى جوانب الغرفة قبر آخر للعلامة عبد السلام التونسي⁽⁸²⁾ وقد غطي التابوت بقطعة من القماش الحريري والقطيفة من العصر العثماني حسب زخارفه، ونُصب في أركانه ووسطه أعلام، ويتدل من سقف الحجرة كور معلقة من بيض النعام، كما عُلق في الحوائط لوحات ذات كتابات فنية وزخارف من المنمنمات وهي هبات وهدايا الزوار للضريح، علما أن الضريح كان يتلقى هدايا وهبات حتى من المشرق والشام بناء على ما فيها من أسماء وكتابات.

وتبدو القبة من الخارج على شكل هيكل بنائي مرتفع رباعي يغطيه سقف انحداري من قرميد نصف أسطواني ذي طلاء أخضر لماع⁽⁸³⁾.

إن التحليل الأثري للتخطيط المعماري للضريح يوحي بصلته القوية بتصميم الأضرحة المغربية، وهذا التصميم هو أحد النماذج لذلك التخطيط الذي ساد المغرب الأقصى والذي تأثرت به الأضرحة الزيانية بتلمسان بل والمغرب الأوسط بكامله مثل ضريح سيدي إبراهيم مثلما ذكرنا وضريح ابن مرزوق في تلمسان وأضرحة السلاطين المرينيين في المقبرة الملكية بسلا.

ومهما يكن فإن عمارة الأضرحة في المغرب الإسلامي بدأت منذ الفترة المرينية الزيانية تتجه اتجاهات جديدة من حيث تزايد الاهتمام بعمارها والإكثار منها وإقبال الناس عليها، ولم تكن المؤثرات والتأثيرات المشرقية والمصرية بالذات بعيدة عن ذلك.

وتحدر الإشارة أن السلاطين والأمراء المغاربة كانوا يلجأون إلى تأسيس منشآتهم الدينية متخذين من ضريح أحد الأولياء أو العلماء والمتصوفة والزهاد ممن له شهرة عند الناس كنواة لتلك المنشآت، عكس بلاد المشرق التي يتخذ سلاطينها وأمرائها المدافن لهم بالمنشآت التي يشيدونها كنواة لتلك المنشآت، والأمر في ذلك واضح، فإن السلاطين في المغرب وقد استولوا على السلطة بحد السيف بعد الموحدين لا بدعوة دينية أو فكرة إصلاحية كما جرت عليه العادة قبلهم مع الأدارسة والفاطميين والمرابطيين والموحدين وهي الدول الكبرى والهامة في المغرب، اتخذوا منها وسيلة لترضية المجتمع وتقبله لهم ولمشاريعهم، وكان المرينيون أكثر نشاطا في هذا الصدد.

حمام سيدي أبي مدين:

يواجه حمام سيدي أبي مدين بالعباد الفوقي الجامع وهو ملاصق للميضأة العمومية شمالا وكلاهما يشرف على طريق ضيق يوصل لمساكن الحي.

وإذا كان الحمام قد تعرض للعديد من الإصلاحات والترميمات أتت على ثروته الزخرفية التي يرجح أنها كانت إحدى خصائصه المشتركة مع الوحدات المعمارية المجاورة له، فإنه ما زال يحتفظ بشكله العام وغطه وطراره المعماري وجوهر تخطيطه. فإضافة إلى رواق كتلة المدخل يحتوي الحمام عموما على خمس قاعات هي على التوالي:

1 - قاعة الاستراحة وخلع الملابس L'APODITARIUM.

2 - القاعة الباردة FRIGIDARIUM.

3 - القاعة الدافئة TEPIDARIUM.

4 - القاعة الحارة COLDARIUM.

5 - قاعة التسخين أو الفرن

وقد توزعت هذه القاعات على كتلة بنائية تتخذ شكلا مستطيلا يمتد من الشرق إلى الغرب يمكن تقسيمه من حيث الكتلة والشكل والتخطيط والتوزيع إلى قسمين: يتصل الأول منها بالثاني اتصالا مباشرا عبر رواق منكسر يصل ما بين الكتلتين.

القسم الأول / كتلة المدخل وغرفة الراحة وخلع الثياب.

القسم الثاني / الحمام بعناصره الأساسية.

القسم الأول: يفتح باب الحمام في كتلة المدخل، ويواجه الجامع، عرضه 1م يؤدي إلى فراغ يلي المدخل مقاساته 2م × 2.20م ثم ينعطف جنوبا ليتصل برواق منكسر طوله 6م وعرضه 1.30م.

غرفة الراحة وخلع الثياب: تقع يسار كتلة المدخل، وهي مستطيلة الشكل طولها 4.10م وعرضها 3م، مخصصة لخلع الثياب والاستراحة والاسترخاء بعد الاستحمام. وهي مقسمة إلى جزأين على شكل رواقين متساويين: الغربي منهما وهو المشرف على رواق المدخل المنكسر يواجه القاعة الباردة، ومقسم بدوره إلى فراغات مستطيلة مقاساتها (1.20م × 1م) عددها ثلاثة يفصلها عن بعضها عقدتين يرتكزان على أربعة أعمدة أبعادها مستديرة.

وقد غطيت هذه الغرفة بقبة ثمانية الأضلاع تقوم على حنايا ركنية مجوفة على شكل مثلث قاعدته للأعلى، ويتضمن بطن القبة فتحات للإضاءة. وتتوسط السقف الخارجي المسطح الذي فتح فيه في اتجاه المدخل فتحتين مستطيلتين للإضاءة، وتخلو القبة والسقف من أي مظهر زخرفي.

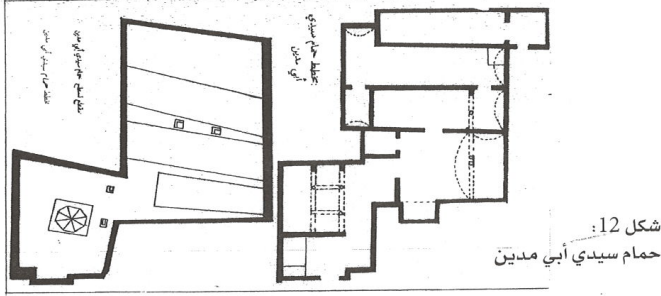
وتشبه هذه القاعة من حيث موقعها وتغطيتها بقية الحمامات المرينية الأخرى وخاصة حمام مدينة وجدة الذي بناه أبي يعقوب، فإن قاعة خلع الثياب فيه والراحة قبعتها أشبه بقبة حمام العباد ويتجاوز التشابه بينهما إلى طريقة توزيع القاعات⁽⁸⁴⁾.

ويطلق على غرفة خلع الملابس والاستراحة في المشرق اسم «المشلع» أو «المسلخ»

وهذا الاسم الأخير هو المتداول في مصر والمغرب الأقصى أما في تونس فيسميها السكان المحرس⁽¹⁾، وهي أسماء ذات دلالات محلية فالمشلع لغويا من شلح وشلح، شلحا أو تشليحا (الثياب) بمعنى خلع الثياب جزئيا وعري بعض جسده⁽⁸⁵⁾.

وقد ألحق بغرفة الراحة وخلع الملابس مرحاض يقع يسار باب الدخول.

القسم الثاني: وهو الحمام بمعناه الكامل ويتكون من ثلاث قاعات إضافة إلى قاعة التسخين أو الفرن وهي على التوالي القاعة الباردة FRIGIDARIUM، القاعة الدافئة TEPIDARIUM، القاعة الحارة COLDARIUM يبدو أن التوزيع الداخلي لقاعات الحمام أصبح نمطيا في القرنين 8 هـ / 13-14 م فحمامات هذه الفترة كلها تتبع هذا النمط، مثل حمام المخفية (نسبة للحمي الذي يقع فيه الحمام) بفاس، وحمام لعلو (نسبة للحمي) (755 هـ - 1355 م) وحمام سلا بالرباط (قبل 758 هـ / 1358 م)، حمام جبل طارق القرن 8 هـ / 14 م. وقد درس معظم هذه الحمامات هنري تيراس⁽⁸⁶⁾ وقد تبين من تلك الدراسة الخصائص النمطية لتلك الحمامات وتشابهها فيما بينها وبين الحمامات المرينية. وهي وإن اختلفت في التفاصيل مع حمام سيدي أبي مدين من حيث الشكل وتوزيع العناصر والزخرفة، فهي من حيث جوهرها التخطيطي والتوزيع الداخلي متشابهة للحمام الذي نحن بصده.



شكل 12:
حمام سيدي أبي مدين

القاعة الاولى الباردة: فتتصل برواق المدخل المنكسر، وهي مستطيلة الشكل مقاساتها حوالي 5.20م×3.60م وتحتوي على حوض للمياه الباردة بالضلع الغربي على يمين مدخل الغرفة طوله 3م وعرضه 2م وعلى يسار نفس المدخل بالضلع الشمالي مرحاض مستطيل الشكل أيضا مقاساته 1.50م × 1.10م. وبالضلع الجنوبي من الغرفة مصطبة مرتفعة عن الأرضية مستطيلة طولها هو عرض الغرفة (3.60م) وعرضها 1.50م غطيت بقبو نصف أسطواني يتعامد مع القبو نصف أسطواني الذي يغطي الجزء الآخر من القاعة. وقد فتحت فتحات مستديرة مرصعة بالزجاج في أعلى بهوي القاعة للإضاءة الطبيعية. وكانت القاعة الباردة تسمى بالغرفة الخارجية أو البيت البراني بمدينة فاس، أو بالبيت الوسطاني أو البراني بدمشق في سوريا، أو البيت الأول في القاهرة في مصر، أما في تونس فكانت تسمى بالبيت البارد⁽⁸⁷⁾

القاعة الدافئة: تتصل بالقاعة الباردة بباب عرضه حوالي 0.90م، أما القاعة نفسها فمستطيلة الشكل طولها حوالي 6.08م وعرضها حوالي 2.20م، يغطيها قبو نصف أسطواني له فتحات للإضاءة مرصعة بقطع من الزجاج وفي أقصى القاعة جنوبا يفتح باب صغير عرضه 0.70 م يصل ما بين القاعة الدافئة والقاعة الحارة.

القاعة الحارة: وهي بدورها مستطيلة الشكل مقاساتها 8م طولاً و 2.20م عرضاً، يغطيها قبو نصف أسطواني وفي نهايتها الشمالية تمتد القاعة عرضياً بطريقة قائمة على امتداد القاعة الأصلية، ليشكل ذلك الامتداد غرفة مستطيلة طولها 5.80م وعرضها 1.50م يغطيها قبو نصف أسطواني عمودي على قبو القاعة الأصلية، كما تشكل نهايتها الغربية غرفة أخرى مستطيلة على هيئة خلوة مقاساتها 2.20م × 1.50م. وكان هذا النوع من الخلوات أو الغرف المنفردة أو المنعزلة يُخصص عادة للشخصيات المتميزة في المجتمع، ويستخدمها العرسان والعرائس استعداداً للزفاف، ولذلك يطلق

عليها «غرفة العرائس»، حيث يتم فيها إعداد العريس أو العروس والعناية بكل منهما مسدا وتنظيفا وتزيينا وذلك في أوقات مختلفة حسب استخدامات الحمام أو أوقات استخدامه بين الرجال والنساء، ويشير حسن الوزان إلى هذه الحجرات الصغيرة أو الخلوات داخل القاعة الحارة في حمامات فاس فيقول أن: «... الرجال المحترمين وذوي الخيئات منهم يأتزرون بممزر ولا يحلون في القاعات المشتركة بل ينفردون في حجر خاصة مزخرفة يحتفظ بها في حالة نظافة جيدة لاستقبال الشخصيات الهامة...»⁽⁸⁸⁾.

و في الركن الجنوبي الشرقي من الحجرة حوض لمجرى المياه الحارة مربع الشكل طول ضلعه 1م، تغرف منه المياه في دلاء خشبية لإزالة ما علق بالجسم بعد دلكه أو مسده.

وكانت هذه الغرفة تدعى في مدينة فاس بالمغرب ودمشق في سوريا «وسطاني» أو «وسطى» بينما كانت تسمى في القاهرة بحجرة «الحرارة» أو البيت «الجواني».

أما حمامات بلانسية وشرق الأندلس فإن تسميات الحجرات فيها لا تختلف عن تسمياتها في بقية الأراضي الأندلسية، كما تتشابه مع تسمياتها في المغرب، فالقاعة الباردة كانت تسمى البيت البارد، والقاعة الدافئة أطلق عليها البيت الوسطاني، أما القاعة الحارة فتعرف باسم البيت السخن، وإذا كانت أسماء حمامات الأندلس تتشابه مع الحمامات المغربية فإنها من جهة أخرى لا تختلف عنها في طرق البناء والتركيب ونظام التوزيع الداخلي للحجرات ونظام توزيع المياه⁽⁸⁹⁾.

حجرة التسخين: وتدعى باسم «الفرناق» وتسمى في سوريا باسم «خزان الحرارة والبخار»، وتقع حجرة تسخين حمام سيدي أبي مدين في حجرة خارج الحمام بجهته الشرقية، وتتخذ في موضعها وامتدادها وشكلها نظام قاعات الحمام

فهي مستطيلة مقاساتها 8.50م طولاً و2م عرضاً، ولها مدخل خاص خارج الحمام، وقد قسمت الحجرة إلى جزأين: أحدهما لحفظ الحطب ومواد الحرق الأخرى، وهو على شكل مربع صغير طول ضلعه 2م.

أما الجزء الثاني الخاص بقاعة التسخين نفسها ففيها يوجد الموقد أو الفرناق وهي قاعة ممتدة على استطالة مقاساتها 6.40م وعرضها 2م تمتد بامتداد القاعة الحارة وملتبقة بها، وتتصل بها بواسطة فتحات على هيئة ثقب تتسرب منها الحرارة والهواء المشبع بالبخار، إضافة إلى أروقة حرارية على هيئة مداخن مغطاة بالأجر تمتد أسفل القاعة الحارة. وقد بني الفرناق على شكل كتلة بنائية، ومنه تتوزع المياه الحارة إلى جميع أجزاء الحمام في قنوات فخارية، وعند القاعة الباردة يضاف إلى قناة المياه الحارة قناة أخرى مياهها باردة تتصل بدورها بالقاعة الباردة. ويشبه الموقد أو الفرناق بأروقة حرارته الحمامات المرينية وخاصة حمام سلا بالرباط الذي بناه السلطان أبي الحسن وحمام سيدي أبي مدين⁽⁹⁰⁾.

وتتصل القاعة الحارة والباردة والمراحيض بقنوات الصرف للمياه المتسخة وغير الصالحة، وجميع هذه القنوات سواء قنوات التوصيل أو قنوات الصرف كلها مدمجة في الجدران وتمتد تحت الأرض وأرضيات الحجرات.

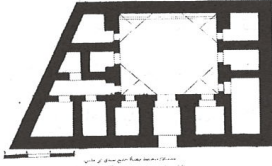
إن الحمامات من متطلبات الصحة العامة ومستلزمات المدينة الإسلامية، وبالرغم من ذلك فإنها حافظت على نظامها المعماري القديم بأقسامه وأجزائه ووحداته، ولكنها أضافت عناصر إنشائية أخرى تطلبتها طبيعة المجتمع ومستوى مرتادي الحمام من الأفراد في ثروتهم ودرجتهم الاجتماعية.

ومهما يكن فإن المباني بأنواعها المختلفة ووظائفها المتباينة، جاءت تلبية لحاجات المجتمع واحتياجاته الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، فتغيرت بتغيره،

وتطورت بتطوره في تلك الميادين ويتضح ذلك في الدراسة الوصفية السابقة التي شخّصت الصور المعمارية للمباني المرينية في تلمسان الزيانية وأبرزت مظاهرها.

الميضأة: (شكل 13).

وهي من ملاحق الجامع ومستلزمات الطهارة والوضوء، وتقع إلى الشرق منه تقابله، لا يفصلها عنه غير طريق ضيق، وهي ملاصقة للحمام إلى الشمال منه، ويبدو أن المكان كان مزدحماً بالمباني لم يكن من السهل تقديمها فتحايل المعمار على طوبوغرافيته فجاء شكلها العام على هيئة شبه منحرف، غير منتظم، مساحته $11 \times 8.40 \times 8 \times 7.80$ م وقد أُرخت ترجيحاً بنفس تأريخ المجموعة المعمارية لأبي الحسن⁽⁹¹⁾.



شكل 13:
الميضأة الملحق بجامع
سيدي أبي مدين

المظهر الداخلي: وفتح باب الميضأة في واجهتها الغربية، باتساع 1 م يؤدي إلى دهليز مستطيل مقاساته 1.10×1.25 م يُفتح بدوره على فناء مركزي شبه مربع مقاساته 4.10×4.25 م تغطيه قبة ويتصدره في الجهة الشرقية المقابلة للباب حوضان مستطيلان للوضوء مقاساتهما 4.20×50 سم، تنفث فيهما مياه جارية عبر قناة فخارية جدارية صغيرة على هيئة ساقية وهو أشبه بحوض ميضأة المدرسة.

الكنف (بيوت الخلاء): وتحيط بالفناء من جهاته الثلاثة باستثناء الجهة الغربية كنف أو أكناف (مفردها كنف وهم بيوت الخلاء)، وعددها 10 وتختلف فيما بينها شكلاً وحجماً ومقاساً، فهي إما مستطيلة أو شبه منحرفة، وتفتح في أغلبها على

الفناء المركزي أو على دهليز يتصل به. وقد غطيت الكنف بأقباء نصف أسطوانية، وتوزع كالتالي: ثلاثة جنوبا وأربعة غربا واثنان يكتنفان المدخل ومثلهما في الركن الشمالي أما بالجهة الشمالية فنلاثة.

إن اختلاف شكل وحجم بيوت الخلاء مرده للموضع الطبوغرافي الذي أقيمت عليه الميضاة من حيث انحرافه وعدم اعتدال مساحته في شكل هندسي منتظم، وهو ما دعا المعمار إلى التحايل على تلك المساحة التي تواجهه، فقام بالتوزيع الداخلي لبيوت الخلاء بما يتفق مع التخطيط النمطي لهذا النوع من المباني، ويتضح ذلك في حسن التصرف والقدرة على التحكم في التخطيط وفي المساحات والفراغات التي أمامه مثلما يتضح ذلك في التوزيع الداخلي بالجهة الشمالية والركن الشمالي من الجهة الغربية.

ويمكن أن نلاحظ أن معظم هذه الحجرات صممت بطريقة تحجب مستعملها عن أعين المتوضعين في الحوضين بالفناء المركزي من جهة وتُمكن من الاستشعار بين من هو في الداخل ومن في الخارج الذي يرغب في الدخول، فالتخذت تلك الحجرات لهذه الأسباب جميعا شكلا هندسيا منحرفا على هيئة اللام الابتدائي (ل) في أوضاع مختلفة أو على صور قريبة منه، ويعلو كل حجرة فتحة للإضاءة والتهوية وكانت المياه تصلها عبر قناة حائطية في أسفل الجدران على شكل ساقية تمتد بامتداد الحجرات، وتخطيط هذه الميضاة صورة تكاد تكون مطابقة تماما لتخطيط ميضاة المدرسة الشيء الذي يؤكد نسبتها لتاريخ ومؤسس المدرسة وهو السلطان المريني أبي الحسن (92).

القبّة: وهي قبة ثمانية تقوم على رقبة تعلو منطقة انتقال تشكلها حنايا مخوفة على هيئة قبة أسطوانية ينتهي بشكل هرمي مقطوع، وترتفع عن أرضية الصحن بحوالي

م6.68، وتتضمن زخارف شبيهة بزخارف سقف بيت صلاة الجامع مما يؤكد نسبتها وتاريخها لنفس المجموعة المعمارية التي بناها أبو الحسن.

وتقوم تلك الزخارف على حلية مركزية من أطباق نجمية ذات 16 ضلعا تحتل المثلث ويتوسطها حلية أخرى تمثل قمة القبة مشكلة من ثماني مثلثات تكون الأوجه الجانبية للشكل الهرمي للقبة، وقد زخرفت هذه المثلثات بخروم وسط مضلع سداسي تحتل مركز الطبق النجمي تقوم بوظيفة الإضاءة والتهوية، فضلا عن ثماني نوافذ صغيرة أسفل بداية القبة في الاتجاهات الجغرافية الرئيسية⁽⁹³⁾.

ومن هنا فإن المرينيين وإن فشلوا في تحقيق مشروع إعادة توحيد المغرب الإسلامي لأسباب كثيرة سياسية واجتماعية وقبلية وأسرية وعسكرية، ولأسباب أخرى داخلية وخارجية، ومع ذلك فإنهم لعبوا دورا هاما في مجال البناء والتعمير، وشجعوا الحركة العلمية والثقافية في بلاد المغرب بكاملها وخاصة في المغربين الأقصى والأوسط.

الهوامش

- (1) A. dhina, royaum abdelouaid le. ., o. p. u., alger, 1985, p. 31.
- (2) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، القاهرة، د.ت. ص. 113-114.
- (3) أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك، نشر دو سلان، باريس 1965، ص. 77.
- (4) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان 1983، مج. 6، ص. 157.
- (5) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، مصدر سابق، ص. 113.
- (6) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، أبسالاً 1843، ص. 8، السلاوي، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 1، تحقيق الأخوان، محمد وجعفر الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء 1954، ص. 143.
- (7) Histoire des benî Zeïyan roi Sdetlemcen, paris 1852, p. LXI, LXII, LXIV. J. J. L. Bargès,
- (8) أبو عبيد البكري، مصدر سابق، ص. 76.
- (9) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص. 265 - 266. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج 1، ص 21-23، المالكي، رياض النفوس، ص. 21. عبد الرحمن بن خلدون كتاب العبر، ج 7، ص. 156.
- (10) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج 2، القاهرة 1963، ص. 58-68، ابن عذاري المراكشي، نفس المصدر جزء 2، ص. 4-5، الجزء 1، صص. 39-40، د. السيد عبدالعزيز سالم، المغرب الكبير ج 2، العصر الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت لبنان 1981، ص. 271، موسى لقبال، «تبار الفتح الإسلامي في شمال إفريقيا ونتائجه» في /الجزائر في التاريخ، ج 3، العهد الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984، ص. 47-49، 52-56.
- (11) عن الحركة الإدريسية لتلمسان وضمهم لها، انظر / السلاوي، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 1، ص. 143-155.
- (12) يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق الدكتور عبد الحميد حاجيات، منشورات المكتبة الوطنية، الجزائر 1980، ص. 90.
- (13) أبو عبد الله محمد الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق وتعليق جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1954، صص. 17-51.

- (14) عبد الرحمن بن خلدون، العبر، مج 6، صص. 349-365، رشيد بورويبة، الدولة الحمادة تاريخها وحضارتها، ديوان الامطبوعات الجزائرية، الجزائر 1977.
- (15) ابن أبي زرع، مصدر سابق، صص. 87-110، عبد الرحمن بن خلدون، نفس المصدر، مج 6، صص. 373-389.
- (16) يحيى بن خلدون، نفس المصدر، ص 91.
- (17) ابن أبي زرع، نفس المصدر، صص. 110-183، عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، مج 6، صص. 464-572.
- (18) عبد الرحمن بن خلدون، العبر، مج 6، ص 520، مج 7، ص 160-161.
- (19) ولي أبو زكرياء على أفريقية للخليفة الموحي المأمون سنة 626 هـ/1227م، متخذا من إلغاء المأمون لتعاليم الإمام المهدي بن تومرت، وإسقاطه لمذهب الموحيين بشعاراته ورسومه ذريعة للعصيان وسببا مباشرا للإستقلال بولاية أفريقية، انظر:
- عبد الرحمان بن خلدون، العبر، مج 6، ص 593-595.
- G. Marçais, Laberberie Musulmane et l'orient au moyen âge, Paris 1946, P. 279, noten°2-
- د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج 2، العصر الإسلامي، بيروت لبنان 1981 ص 875-876.
- (20) عن وصول قبيلة بني عبد الوادي إلى التنفد في تلمسان ثم حكمها وتولية يغمراسن بن زيان عليها من قبل الخليفة الموحي المأمون، وكذلك استقلاله بالمغرب الأوسط، انظر ذلك في:
- يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص 199-200.
- محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعباد، الجزائر 1985، ص 112-113.
- (21) عبد الرحمن بن خلدون، العبر، مج 7، ص 458-459، انظر ايضا: السلاوي، مصدر سابق، ج 3، ص 80.
- (22) عن تفاصيل هذا الحدث والمعاهدة وشروطها انظر: عبد الرحمن بن خلدون، العبر، مج 7، ص 201-485-489. يحيى بن خلدون، المصدر قبله، ج 1، ص 211.
- (23) ابن الأحمر، مصدر سابق، ص 26، التنسي، مصدر سابق، ص 146.
- السلاوي، مصدر سابق، ج 3، ص 125-126، يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ج 1، ص 219.
- (24) انظر تفاصيل الإتصالات والمراسلات مع ملوك وأمراء الدول في / ابن مرزوق، مصدر سابق،

- ص. 402، السلاوي، مصدر سابق، ج 3، ص. 127-131، 140-152.
- (25) ابن مرزوق، نفس المصدر، ص. 402-407.
- (26) ش. 1. جوليان، مرجع سابق، ص. 233.
- يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ج 1، ص. 237، 241، د. عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياتي، ص. 25.
- (27) عبد الرحمن بن خلدون، العبر، مج 6، ص. 817-818، وانظر أيضا تفاصيل ذلك في / نفس المصدر، مج 7، ص. 570-574، د. مصطفى أبو ضيف، مرجع سابق، ص. 190.
- (28) 1 أنظر تفاصيل ذلك في / عبد الرحمن بن خلدون، العبر، مج 7، ص. 591-592.
- يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ج 1، ص. 242-243.
- (29) عبد الرحمن بن خلدون، العبر، مج 7، ص. 252-253، السلاوي، مصدر سابق، ج 3، ص. 182.
- * أول مرة سقطت فيها تلمسان في يد أعدائها كان سنة 640هـ/1242م بمقد أبي زكريا الحفصي، أنظر ذلك في / يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص. 215.
- (30) أنظر تفاصيل ذلك في / التنسي، مصدر سابق، ص. 157-159، د. عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياتي، ص. 83-86، أنظر بتصرف عن / عبد الرحمن بن خلدون، العبر، مج 7، ص. 255-258.
- ويتصرف عن / د. عبد الحميد حاجيات، «إحياء الدولة الزيانية»، في الجزائر في التاريخ، ج 3، العصر الإسلامي، ص. 403-405.
- يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ج 1، ص. 246، التنسي، مصدر سابق، ص. 154،
- J. J. Bargès, Histoire des beni zeïyen, P. 64.
- (31) د. السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص. 715.
- J. J. Bargès, Histoire des beni zeïyen, P. 182-183.
- (32) عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ص. 507، 520، مج 7، ص. 159، د. عبد الله علي غلام، مرجع سابق، ص. 287.
- (33) حسن الوزان (المعروف بليون الأفريقي)، وصف إفريقيا، ج 2، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط 2، 1983، ص. 17.
- (34) Ch. Brosselard, les inscriptions arabes de tlemcen, in, Revue Africaine, n°18, 1859, P. 404.
- * عن العباد، أنظر: يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج 1، ص. 87-107، 119، ابن مريم، البستان، ص. 114، 130، 134، 184-185، مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات

- المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (ش.و.ن.ت.) الجزائر 1979، ص 160.
- (35) عن شخصية سيدي أبي مدين: حياته ووفاته أنظر: يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج. 1، ص 125-126، ابن مريم، البستان، ص 108-114، عبد الحميد حاجيات، كتاب الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان (تحقيق)، ش.و.ن.ت. الجزائر 1982، ص 23 هامش 1.
- Ch. Brosselard, Les inscriptions..., R. AF. 1859, P. 1-17, G. Marçais, Tlemcen..., P. 66-67.
- (36) G. Marçais, Manuel..., T. 2, P. 491, G. et W. Marçais, Les monuments..., P. 223-226.
- (37) محمد العبدري البلسني، الرحلة المغربية، نخ. الأستاذ أحمد بن جدو، كلية الآداب الجزائرية، الجزائر، د.ت. ص. 9-10.
- (38) يحي بن خلدون، مصدر سابق، ص. 125-126، وعن حياة أبي مدين وسيرته ووفاته، ينظر أيضا / ابن مريم، البستان، ص. 108-114.
- (39) ابن أبي زرع، مصدر سابق، صص. 136-151.
- (40) عن جهاد المرينيين في الأندلس وعلاقتهم ببني الأحمر، أنظر / السلاوي، مصدر سابق، ج 3، صص. 138-139، د. محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، دار القلم والنشر والتوزيع، الكويت 1987، صص. 227-230.
- (41) أنظر ص. 3-4، وهامش (23)، (27-28)، * عندما استولى أبو الحسن على تلمسان ألحق حند بني زيان بجيشه، تعبيرا عن حسن نيته إزاء سكان تلمسان.
- (42) محمد ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، نخ. د. ماريّا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.
- (43) ابن مرزوق، نفس المصدر، صص. 397-430.
- (44) ابن مرزوق، مصدر سابق، ص. 403، يحي بن خلدون، مصدر سابق، ص. 126.
- (45) ابن مرزوق، نفس المصدر، ص. 403، 447.
- (46) ابن مرزوق، نفسه، ص. 145.
- (47) G. et W. Marçais, Les monuments..., P. 247-248.
- (48) ابن مرزوق، مصدر سابق، ص. 403.
- (49) Ch. Brosselard, « Les inscriptions », ..., R. AF. n°18, P. 404.
- (50) هذه العبارة تكملة للنقش السابق لم ترد في نص بروسيلار، أنظر: د. ر. بورويبة، الكتابات

- الأثرية، ص 81، وأنظر أيضا لنفس المؤلف،
Les inscriptions commémoratives des mosquées d'Alger, O. P. U., Alger 1984, P. 128.
(51) ر. بورويبة، الكتابات الأثرية، ص 89.
(52) Ch. Brosselard, « Les inscriptions », R. AF, n°18, P. 404-405.
(53) H. Terrasse, L'art hispano-moresque des origines au 13^{ème} siècle, paris 1932, p. 354.
(54) R. Bourouiba, L'art religieux musulman en alger, alger, s. n. e. d. 1973, p. 160
(55) G. et W. Marçais, Les monuments..., P. 240-244, pl. XVII.
(56) ابن مرزوق، مصدر سابق، ص 424.
(57) H. terrasse, J. hainaut, les arts décoratifs au maroc, lauren, paris 1925, p. 766
(58) G. et W. Marçais, Les monuments..., P.
(59) ابن مرزوق، مصدر سابق، ص 404.
(60) G. et W. Marçais, Les monuments..., P.
(61) عن ذلك أنظر:
/ H. Terrasse, l'art hispano-moresque, p. 304-305
(62) ابن مرزوق، مصدر سابق، ص 288.
(63) A. dessus-lamarre, « la anaza » 5^{ème} congrès inter. d'arc.
(64) R. Bourouiba, L'art religieux... P. 182-185.
(65) G. Marçais, L'architecture (63) A. ulman d'occident, paris, paris 1954, p. 285.
(66) ابن مرزوق، مصدر سابق، ص 406.
(67) رشيد بورويبة، الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية، تر. ابراهيم شيوخ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1979، ص 83.
(68) Ch. Brosselard, « Les inscriptions », R. AF, n°18, P. 108-109
(69) حسن الوزان، مصدر سابق، ج 2، ص 24.
(70) J. J. L. Bargès, Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom, dupart, paris 1859, p. 310, 312.
(71) G. et W. Marçais, Les monuments..., P. 274
(72) ibid, P. 64.

- (73) R. Bourouiba, L'art religieu... p. 190.
- (74) G. et W. Marçais , Les monuments... , P. 270_277
- (75) لونشريسي (أحمد بي يحيى ت. 914هـ/1508م)، المعيار المغرب والجامع المغرب في فتاوي إفريقية والأندلس والمغرب، ج 1، 7، 9، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان 1981.
- (76) Terrasse, M. L'Architecture hispano-maghrébine et la naissance d'un nouvel art marocain à l'âge des Mérinides. Thèse de Doctorat d'Etat,, Université de la Sorbonne,, Paris, 1979p. 349.
- (78) R. Bourouiba, L'art religieu... p. 189
- (78) عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، مج. 7، ص. 157.
- (79) «Excursion à Hubbard-visite autombeaude Sidi Boumedyn», Revue de l'Orient de l'Algérie et des colonies, t XIV, 1854
- (80) Ch. Brosselard, « Les inscriptions », ..., R. AF. n°20 , P. 84.
- (81) Ch. Brosselard, « Les inscriptions », ..., R. AF. n°20 , P. 86-88.
- (82) G. et W. Marçais , Les monuments... , P. 235
- (83) R. Bourouiba, L'art religieu... p. 189.
- (84) G. Marçais, Manuel... , T. 2, P. 559. fig. 296.
- (85) مجموعة مؤلفين، المعجم العربي الأساسي، م. ع. ت. ع. ث. ع. الأليسيكو، 1989 ص. 700.
- (86) Terrasse, H. «Trois bains mérinides du Maroc», Mélanges W. Marçais, 1950.
- (87) A. Louis, «Hammam», in / incyclopedie de l'Islam, t. III, P. 150.
- (88) حسن الوزان، مصدر سابق، ج 1. ص. 230.
- (89) A. Bazza na, Maison d'Al-Andalous , Habitat médiéval et structure des peuplements dans l'Espagne. orientale, Madrid, 1992, p. 258
- (90) H. Terrasse, Trois bains Merinides... , P. 311- 314.
- (91) G. et W. Marçais , Les monuments... , P. 280.
- (92) R. Bourouiba, L'art religieu... p. 186.
- (93) G. et W. Marçais , Les monuments... , P. 280_281.